الله

الكون الإنسان

أحمد بهجت

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

الله
الإنسان
الكون

أحمد بهجت

المركز العربي للنشر والتوزيع
اسكندرية - ٤ ش سعد زغلول - ت : ٨١٠٨٢٨
القاهرة - ٤٣ ب ش رمسيس ت : ٧٤٣٦١١

إهــداء

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله وشهدائه .. يحتل أبى مكانته فى قلبى ..

ليست الأبوة هى وحدها السر فى إعزازى له .. ثمة سبب آخر ..

يقول الصوفية فى الحب « أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يتبقى لك منك شىء » .

ولقد عاش أبى حياته مدرسا يهب نفسه لتلاميذه وأسرته ووطنه .. حتى لم يعد باقيا لنفسه شىء من نفسه ..

إلى أبى

محمد بهجت

أهدى هذا الكتاب .. اعترافا بالفضل وحبا .

أحمد بهجت

مقـــدمة

ليس لى من فضل فى هذا الكتاب غير اختيار مادته من كتب المحققين والصوفية ، ربما كنت أقول رأيا هنا أو هناك ، وربما قمت بتبسيط معنى أو فهمه بشكل خاص ، وربما كان عقلي يفرض على اختيار أشياء ونبذ أشياء ، ويقوم بغربلة ما أقرأ ، غير أن الأصل فى الكتاب أنه مختارات مما قرأت فى التصوف .

المشكلة أن التصوف ليس ثقافة توسع آفاق العقل ، إنما هو تجربة روحية تتصل أشد الاتصال بالسلوك ، التصوف تذوق خاص ومشاهدة بعينى فؤادك أنت ، لا يغنى عنك أن يرى لك إنسان آخر أو يتذوق لك .

نقول هذه الكلمة اعترافا بالحق ، وكى لا يظن أحد من قراء الكتاب أن كاتب هذه السطور يدعى لنفسه فضل خوض تجارب الصوفية ، ولكى لا يظن القارىء نفسه أنه قد خاض تجاربهم لأنه قرأ فى التصوف .

بعد هذه الكلمة .. نريد أن ننبه القارىء إلى صعوبة الكتاب ..

الكتاب بلغته وأسلوبه ومعانيه يحتاج إلى جهد عقلى ومعاناة .. إنه يتحدث عن الصوفية قليلا ، ويستشهد بأقوالهم معظم الوقت .. وكان المفروض أن يحدث العكس ، غير أننى اخترت المغامرة لسبب هام .

إن للصوفية كلمات صعبة ، غير أنها إذا عولجت بالقراءة والإحساس والتذوق وطبعها المرء فى قلبه .. فإنها قادرة على تغيير الإنسان .. بينما الكتابة عن التصوف دون استشهاد بكلمات الصوفية ، أمر يدخل فى نطاق الثقافة الصوفية التى لا تغير من سلوك الإنسان . ونحب أن نطمئن القارىء إلى أن فهمنا للتصوف هو الفهم القديم السنى الذى يرفض اعتبار شطحاتهم جزءا من الدين .. وإنما يلحقها بالفن .. أما ما اتفق مع كتاب الله وسنة رسوله فذلك هو وحده المقبول عندنا .

ولعل هذا هو السر فى إعجابنا الخاص بالغزالى

والجنيد والشاذلى وكل أئمة التصوف السنى القديم ..

والأصل أن التصوف هو الابن الشرعى للزهد .

ولم يكن الزهد فى العصر الإسلامى المبكر حركة من الحركات الدينية ، ولا مذهبا من المذاهب ، ولا نظاما جماعيا ، بل كان نزعة فردية رائدها الدين وحده ، نزعة استمدت وجودها من القرآن الكريم وسنة رسوله .

والحقيقة ، إن المسلمين فى هذا العصر الأول ، كانوا منصرفين إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوته ، أكثر من انصرافهم إلى إحياء الزهد والاعتكاف ، وكان الجهاد وبذل النفس فى سبيل الله ، هو أكبر شرف يناله المسلم .

روى عن النبى قوله : « لكل نبى رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد » . وقال عليه الصلاة والسلام « مرابطون إلى يوم القيامة » .

والظاهر من سير بعض كبار المجاهدين فى الإسلام ، أن الجهاد كان ينظر إليه بنفس النظرة التى

نظر بها فيما بعد إلى الزهد ، ولعل هذا يفسر لنا كيف استبدل المسلمون بالجهاد في سبيل الله هذا العكوف في صوامع .

ومع تقدم الدولة الإسلامية في السن ، سرعان ما تحول هذا الزهد إلى زهد عميق منظم ومعقد ، وأصبحت له حياة ومراسيم وقواعد وشروط ومريدون وشيوخ ، وبذلك أصبح الزهد حركة دينية واتجاها خاصا في الحياة ، كما أصبح ظاهرة جماعية منظمة داخل صوامع أشبه ما تكون بصوامع الرهبان المسيحيين .

تحول الزهد إلى تصوف ، استغرق ذلك التحول زمنا ، وتعاونت على ذلك كثير من المؤثرات ، وبعد أن كان مصدر الزهد الوحيد هو القرآن والسنة صارت مصادر التصوف عديدة ، صار هناك علم الكلام والأفلاطونية الحديثة والتصوف الهندى والمسيحية .

ولهذا السبب يقول ابن الجوزى : « التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد ، ولكنهم ذموا التصوف ».

ولقد قيل كلام كثير عن التصوف .

قيل أن التصوف هو البحر الهائل الذى غرقت فيه سفن الجهاد فى سبيل الله ، واستبدل المسلمون بالموت فى الصحارى المحرقة لنشر الإسلام ، متعة الفناء فى الله تحت الظلال الوارفة فى الحدائق .

وقيل أن التصوف هو هذا الركام الهائل من التصورات والسبحات والشطحات والأذواق والمشاهدات والتجليات ، والتصوف بذلك ثروة لغوية وأدبية وفنية ولكنه خسارة للإسلام والمسلمين .

قيل هذا الهجوم كما قيل دفاع كثير عن التصوف ، قال معروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ هـ : التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، وقال بشر ابن الحارث الحافى المتوفى ٢٢٧ : الصوفي من صفا قلبه لله .

وقال ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ :

الصوفى إذا نطق أبان منطقه عن الحقائق ، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق .. أى أن الصوفى بين حالين إما أن يتكلم أو يلزم الصمت ، فإن تكلم لم يقل إلا حقا ، وإن سكت عن الكلام نطقت جوارحه بما ينبىء عن أنه قطع علائقه بهذا العالم ،

فهو مشغول بالله فى الحالتين ، حالة نطقه وحال سكوته .

والحقيقة ليست ضائعة بين خصوم التصوف وأنصاره ، فإن حجة الإسلام الإمام الغزالى قد تكفل ببيان الحق فى الأمر ، فقال فى الصوفية بعد أن درس كتبهم ووقف على أقوالهم :

« وظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالتذوق والحال ، وتبدل الصفات ، فهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال » .

وهذه الشهادة الصريحة من حجة الإسلام بان التصوف هو فى صميمه تجربة روحية ، وأنه شىء مختلف عن العلم وعن الفلسفة ، وإنما هو وليد العمل والمجاهدة النفسية ، هذه الشهادة الصريحة تضع التصوف فى مكانه الصحيح ، وتقدمه بحجمه الطبيعى وتقول لنا ما نأخذ منه وما ندع .

وجدت نفسى منساقا إلى الرسالة القشيرية للإمام عبد الكريم القشيرى .. فاخترت منها أجزاء يضمها هذا الكتاب الصغير ، مدركا أن رسالة الإمام القشيرى

لعبت دورها العظيم فى مقاومة الأدعياء والدخلاء والمدلسين والمضللين .. يقول د. إبراهيم بسيونى فى رسالته للدكتوراه عن القشيرى :

« نستطيع أن نتصور أى دور تلعبه الرسالة فى المقاومة ، فهى تعبر عن مرحلة زمنية متأخرة ، استشرى فيها داء التضليل ، حتى وصل إلى تهديد أخص خصائص الدين ، أى التوحيد .. ولهذا لا يكاد يخفى على قارىء الرسالة منذ سطورها الأولى إلى نهايتها حرص القشيرى على تنقية التوحيد الصوفى من كل دعوى تهدده أو تشط به ، حتى ولو كان التعبير عن ذلك مغلفا بغشاء من الصدق الزائف البراق ، فهو ما يفتأ يميط اللثام عن هذا كله ، وما يفتأ يوضح أن أحكام الشريعة وجوهر العقيدة هى عمدة الدخول إلى الطريقة ، وبدونها ، أو بالتفريط فى شىء منها ، لا يكون خير ولا محصول ولا وصول » .

اعتمدت إلى جوار كتب القدماء على كتب الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور أبو العلا عفيفى والدكتور إبراهيم بسيونى والدكتور عبد القادر محمود ، والدكتور محمد مصطفى حلمى وعديد من

كتب أساتذة الجامعة وعلماء الإسلام .. أسأل الله لهم جميعا القبول والرضا .

بقى أن يسألنى القارىء عن علاقتى ـ كرجل يعمل فى حقل الأدب ـ بدنيا التصوف .. الجواب أن علاقتى مزدوجة ..

بوصفى مسلما أرى من واجبى أن أحب كبار العاشقين للإسلام ، وهؤلاء هم الصوفية ، وبوصفى كاتبا .. أرى الصوفية أدباء من طراز متفرد لا مثيل له .. وليس هذا الرأى اكتشافا وصلت إليه .. إن عديدا من كلماتهم وكتبهم لو لم تكن كتبا فى الدين لكانت كتبا فى الأدب العميق والحكمة البالغة . والإمام القشيرى كان كاتبا عبقريا ، وابن الفارض كان شاعرا عظيما ، ومعظم الصوفية كانوا أصحاب أقلام ومشاعر عميقة ..

فى الإنســان

قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

بهذه المشيئة المطلقة العليا أراد الله عز وجل أن يسلم الكوكب المسمى بالأرض للمخلوق المنحدر من نسل آدم .

ويزيد الله تبارك وتعالى فى تكريم آدم فيأمر ملائكته بالسجود له .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » .

ويزيد الحق عز وجل فى تكريمه لآدم وزوجه فيسكنهما الجنة .

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » .

حتى إذا مرت بآدم تجربة العصيان وعرف عدوه الذى رفض السجود له وعرف مسئوليته فى إخراجه من الجنة .. شاءت الإرادة الطليقة العليا أن تسلم الأرض للإنسان .

« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

أى تكريم للإنسان أن يعلن الله عن استخلافه له فى الملأ الأعلى ، ثم يأمر ملائكته بتحيته ثم يسكنه الجنة ، ثم يقبل توبته بعد عصيانه ويغفر له ، ثم يهبطه إلى الأرض وقد سخر له ما فى الأرض ، ثم لا يدعه وشأنه ليهتدى بعقله إلى خالقه ، وإنما يرسل إليه بالرسل والكتب والآيات .. أى تكريم للإنسان .

قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

هذا التكريم الإلهى لنا ، كيف نتلقاه ؟ .. فى عصور انهيار الفكر الإسلامى ، كانوا يتلقونه هكذا ، ينظرون فى آيات النشأة الأولى ويتساءلون : كيف كلم الله الملائكة ، أين كان ذلك ؟ وأين هى الجنة التى أسكنها آدم ؟ .

بمعنى أنهم كانوا يتركون ما تقرره الآيات من حقائق على الأرض ، وما تخلقه من تصورات فى الحياة ويحلقون بعقولهم فى منطقة الغيب ، وهى

منطقة أسدلت عليها الحجب والستائر الكثيفة .. وليس من طبيعة العقل البشرى أن يبحث فيها .

وفى عصور ازدهار الفكر الإسلامى يدعون جانبا منطقة الغيب ، وينظرون فيما توحى به الآيات من قيم وما تقررة من اعتبارات ، وأول اعتبار تقرره أن الإنسان حر ومسئول عن حريته .. أنه حر فى أن يفعل ما يريده ويتحمل مسئوليته .. يقع ذلك فى نطاق المشيئة الإلهية . وتحت نور العلم الأزلى .. ولكن علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من تصرفات العبد ، لا يعنى أنه قهره على هذه التصرفات أو دفعه إليها دفعا .. حرية الإنسان إذن مكفولة ولو لم يكن آدم حرا لما استطاع أن يرتكب ما نهاه الله عنه ويأكل من الشجرة .

أول اعتبار تقرره الآيات إذن هو حرية الإنسان واختياره ومسئوليته . الاعتبار الثانى أن باب التوبة مفتوح أمام من يريد .. قال تعالى : « **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** » .. الإعتبار الثالث أن الإنسان بعد هبوطه إلى الأرض صار سيد الأرض . قال تعالى : « **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض**

جميعا » ودوره فيها هو الدور الأول وعليه حين يترك الحياة أن يتركها أفضل مما وجدها عليه عندما ولد ، ولا يكون ذلك ممكنا إلا باتصال الإنسان ببارىء الحياة ومبدعها ، ورجوعه دائما إلى الله واستسلامه له واستمداده منه .

ومعرفة الإنسان لربه وكرامته على ربه هما ضمانه الوحيد فى وجود إنسانى كريم ، وهما الوسيلة الوحيدة إلى العزة ، « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** » وعندما يعرف الإنسان معنى التعبد لله وحده يعرف معنى العزة .. عزة تتمثل فى ألا يذل جبهته لغيره أو يحنى رأسه لسواه .. بذلك وحده يتحرر الإنسان من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق ، وينطلق بفكره من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ويستبدل بذل سؤال الناس عزة الطلب من رب الناس .

في الكتــاب

قال تعالى :

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا . ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . » .

كتاب هذه الأمة المسلمة هو القرآن ، عرفه علماء الأصول - وهو الغنى عن التعريف - بأنه الكتاب المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ العربى المنقول بالتواتر ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس .

وقال الشافعى فيه : « كل ما أنزل الله فى كتابه جل ثناؤه رحمة وحجة ، علم من علمه ، وجهل من جهله ، لا يعلم من جهله ، ولا يجهل من علمه . » .

ولقد بدأ تنزيل القرآن في شهر رمضان .. حين اتصل الملأ الأعلى بالأرض ، وأذن الله للروح الأمين جبريل بحمل الرسالة الخاتمة وتكليف نبيها ، وعلى امتداد الأيام والشهور ، كان جبريل عليه السلام

يتدارس القرآن الكريم مع النبى . وفى البداية كان الرسول يسارع بالقراءة مع جبريل خشية أن يفوته شيء ، فصرفه الله تعالى عن هذا بقوله : **« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما »** .

وعد الحق تبارك وتعالى بحفظ ما ينزل على الرسول وتفهيمه له فقال عز وجل : **« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »** .

ولقد نزل القرآن منجما مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة بمكة وعشر سنوات فى المدينة . وفى مكة كانت معظم الآيات عن القواعد الكلية كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وفى المدينة استكمل القرآن أحكامه التكليفية ، واستكمل الله تبارك وتعالى تشريعه للأمة الإسلامية ، ولزمتها الحجة إلى يوم القيامة .. ولم ينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى حتى كان القرآن مكتوبا حسب ترتيبه الحالى فى جريد النخل والسعف الغليظ وقطع الجلد وصفائح الحجارة وعظام الأكتاف والأضلاع من الشاء والإبل . بعد ذلك جمع بترتيبه الذى رتبه جبريل عليه السلام مع

النبى .. ونشر فى عصر عثمان فى مصحف واحد سمى « الإمام » .

وقد تساءل الذين لم يؤمنوا بالقرآن عن علة نزوله على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وقالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، وذلك من قبيل تعنتهم ورفضهم للدعوة ، وقد كان لنزول القرآن بهذه الكيفية حكمة عليا تحدث الحق عنها فقال عز وجل : « **وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » .

والقرآن هو قانون الإسلام الأعلى ، والسنة هى تفسيره وتطبيقه ، والنبى عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعون وتابعو التابعين هم النماذج التى يخلقها القرآن من الرجال حين يخلق رجالا .

ينبنى على كون القرآن كتاب هذه الأمة المسلمة وقانونها الأعلى ، أن المسلم مكلف باحترام هذا القانون ، ولا يكون احترام القانون بتقبيله والتبرك به أو الغناء به فى المحافل ، إنما يكون احترام القانون

بتطبيقه وتنفيذه وهيمنته على الحياة وأقدار الناس .. وليس أعظم سخرية من قوم يتبركون بقانونهم ويعلقونه ولكنهم لا يعملون بأحكامه ولا يقيمون تشريعه وتنطبق عليهم جريمة هجر القرآن ، قال تعالى : « **وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** » لا نحسب أن الكلمة تنطبق على أحد أكثر مما تنطبق على كثير منا اليوم .. ولا نحسب أننا نستحق الرحمة إلا إذا هجرنا الهوى وعدنا للقرآن .

فى السـنة

السنة فى اللغة هى الطريقة المعتادة ، حسنة كانت أو سيئة .

والسنة فى اصطلاح الأصوليين هى ما أسند إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ..

والسنة حجة على المسلمين ، وإنكار السنة أو إنكار حجيتها كفر بصريح النص القرآنى .. يقول تعالى : « **قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** » .

وللسنة مكانتها بالنسبة إلى القرآن ، ولها مكانتها بالنسبة إلى التشريع ، فهى المصدر الثانى بعد القرآن للإسلام ، وهى المصدر الثانى للإسلام باعتباره عقيدة وتشريعا وأخلاقا ..

قيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن . فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .. يقصد رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فليس هناك من ينكر أنه أعلمنا بالقرآن الذى أنزله روح القدس على قلبه .

وقد وجد بين طوائف المسلمين من تبع المستشرقين وهمس بالشكوك حول حجية السنة . ومقصده من ذلك نسف الطريق إلى القرآن الكريم ، لأن السنة هى المبينة للكتاب الكريم وهى المفسرة له .

وكان مما أثاروه حول السنة أن القرآن الكريم فيه بيان لكل شيء . وبذلك نستغنى عن بيان السنة لأن الله تعالى يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ويقول تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » والرد على ذلك يسير ، فإن « من شيء » هنا تعنى أصول الشريعة كالصلاة التى فرضها الله تعالى ولم يبين عدد ركعاتها ولا أوقاتها ولا كيفية أدائها وترك للرسول ذلك . ولا شك أن أصول الشريعة قد بينت فى القرآن الكريم ، ولم يفرط الله فى شيء منها ، وأيضا فإن « كل » التى ذكرت فى قوله تعالى « تبيانا لكل شيء » ليس المراد بها كل شيء من أحكام الشريعة وإنما المراد بها كل شيء من الأصول لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

كما أن « كل » فى الآية هى من باب كل التى قصها الله تعالى علينا فى شأن الريح التى أرسلها على ثمود . قال تعالى « **ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها** » ، ولم تدمر هذه الريح السموات والأرض بل لم تدمر غير ديار ثمود .

وقد أثبتت الدراسات الإسلامية الحديثة ، أن السنة قد دونت فى القرن الأول على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة الاجلاء ، وكان المظنون أنها دونت فى القرن الثانى أو الثالث . ولقد وقف المستشرقون من السنة موقفا ينطوى على العداء المقنع الذى يرتدى مسوح الدقة العلمية ، وكان أشد المستشرقين خطرا وأكثرهم بعدا عن الحقيقة هو المستشرق اليهودى المجرى جولد تسيهر ، فقد راح ينقل الكلام من مواضعه ويحرف فى السنة ويلقى الشكوك والظلال على رجالها ، كجزء من استمرار حملة الغرب على أحد منابع قوة الدين فى الشرق ، وتبعهم فى ذلك بعض علماء المسلمين فى الشرق ، إلا أن الله تعالى قيض لهؤلاء المستشرقين من يمحص قولهم ويثبت فساده وغرضه .

وليس معنى هذا أن السنة قد خلت من الوضع أو التحريف ، ولكن هذا كله قد وجد علماء أجلاء تصدوا للأحاديث التى دست على النبى صلى الله عليه وسلم وبينوا عدم صحة نسبتها إليه .

ولقد كان سلفنا الصالح يهتم بالإسناد ، أى بهؤلاء الذين رووا الحديث واحدا عن واحد حتى وصلوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى أحد الصحابة رضوان الله عليهم ، ولقد اهتموا بالإسناد إلى درجة أن جعلوه من الدين فقال الإمام الزهرى : « الإسناد من الدين » .

والسنة هى الرحمة المهداة إلى الكافة وهى الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

قال الرسول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقال : « إنما أنا رحمة مهداة » ، وقال الله عز وجل : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** .) .

إعجــاز القــرآن

قال الغزالى :

« القرآن فى الدلالة على الله تعالى كون ناطق ، كما أن هذا الكون الضخم قرآن صامت وكلاهما ينبثق من ذات واحدة ويهدف إلى غاية واحدة » .

لكم نحب أن نقف وقفة عند جملة الغزالى هذه .

القرآن فى الدلالة على الله كون ناطق . وهو كون معجز نزل على أمة العرب بلغتها فى وقت كانت اللغة العربية فيه فى أوج ازدهارها . وجاء القرآن بلغة عربية يعرفها الذين وجهت إليهم ، ورغم هذه المعرفة كان هناك فارق هائل بين لغة القرآن ولغة العرب .

فرق يتمثل فى إعجاز لغة القرآن ، وكون هذا الإعجاز يتجاوز قمة لا تصل إليها عيون البشر فضلا عن ألسنتهم ، ما هو بالشعر ، ولا هو بالنثر ، ولا هو بسجع الكهان ولا هو بإنتاج إنسان ، ولا هو بالسحر

الذى يعرفه العرب أو يعرفه غيرهم ، إن فى كلماته شيئا معجزا على أى حال .

ما هو السر فى إعجاز القرآن .

كان هذا هو السؤال الذى طرحه الفكر العربى على نفسه وقدم له آلاف الإجابات المختلفة على طول مسيرة هذا الفكر .

فى البداية قيل أن اللفظ معجز فى ذاته ، ومعجز بمعناه ، ومعجز بما يحمله من حكمة . وقيل أن الإعجاز فى تشريعه العام المحكم الذى يتفق مع جميع الأزمنة ويصلح لكل الدهور والعصور . وقيل أن إعجازه يصدر على نبوءاته الغيبية . وقيل أن إعجازه ينبع من علومه الكونية . وقيل إن إعجازه يتمثل فى موسيقاه الداخلية . وقيل أن إعجازه هو تصويره الفنى للمشاهد والأحداث يعرضها فإذا نحن أمام أشخاص يتحركون أمامنا أحياء كما كانوا بملامحهم النفسية وأعماقهم الدفينة ، وإذا نحن أمام ما مضى . أو أمام ما لم يأت بعد ، مشخصا متحركا ناطقا مبينا . إن القرآن يصف الجنة فنحس أننا نتحرك داخلها ، ويصف النار فتقشعر الجلود وتخشع القلوب ، ويصف ما كان من أمر موسى

وفرعون فنحس أننا نعيش ذلك العصر داخل نفوس أبطاله لا خارجها في الحياة ، ويشرع القرآن فإذا الرحمة والعدل.والحب والسلام تولد من تشريعه للعباد .

ويصمت القرآن في نفوس الناس ، أو يبعد عن الحياة أو ينحى عن توجيه أقدار الناس ، فإذا الأرض تئن من الظلم والقسوة والخراب وتلعن اليوم الذى ولدت فيه ، فإذا عاد القرآن إلى النفوس أحياها بعد موتها مثلما تحيي المياه الأرض بعد موتها .

كل هذه الأسباب التى تقال فى إعجاز القرآن صحيحة وربما يكون هناك سبب آخر كشف عصرنا عنه ، ذلك هو وجود أكثر من عمق داخلي لكلمات القرآن وآياته ، وعلى قدر اختلاف درجات الناس من الوعي والثقافة والعلم والفن فإن كل إنسان لابد أن يلتقى بهذا الإعجاز .

إن الأمى يسمع القرآن فيفهم دعوته إلى عبادة الله وتوحيده ، ويفهم تشريعه لأنه سهل ، والمثقف يقرأ القرآن فيرى وراء الدعوة إلى قصر العبادة على الله معنى إنسانيا رفيعا هو تخليص البشر من الطغاة

وإعلانه لحرية الإنسان وحقوقه ، والعالم يقرأ القرآن فيجد فى آياته معجزات علمية لم تكشف عنها الحياة إلا منذ قرنين وهى ثابتة فى القرآن منذ أربعة عشر قرنا ، ورجل الفن يقرأ القرآن فيروعه هذا التجسيد للمشاهد وهذا التحريك لها وهذا التصوير الفنى الذى يشترك فيه اللون والحركة وموسيقى الحوار ونغم العبارات .. أيضا تروعه هذه الزوايا التى يعرضها الله تبارك وتعالى فى كل مرة بطريقة تختلف ليستخلص منها عبادة عبرة تختلف .

وينظر المتصوف فى القرآن فإذا هو أمام أكثر من دنيا تبدأ بالتوبة وتمر على الحب وتنتهى بالفناء ، وهكذا تجد كل طبقة من طبقات الوعى والمعرفة فى القرآن عمقا معجزا تسيح فيه بالعقل ملايين السنين .

ومن أحد أعماق القرآن الصافية نشأت النظرة العلمية فى الحضارة العربية ، ومن أحد أعماق القرآن الصافية نشأ الحب لله أو التصوف .

فضـل الإســلام على الحضــارة

« أنا جاليليو جاليلى ، ابن الراحل فنسنزيو جاليلى الفلورنسى ، عمرى ٧٠ سنة ، حضرت بشخصى للمحكمة .. وراكعا أمامكم .. أى قضاتى المقدسون الكرادلة ، أى محققوا المحكمة الكنسية العالمية المختصة بالهرطقة والكفر .. أقسم أننى صدقت فى الماضى ، وسأصدق فى المستقبل ، كل ما تقوله كنيسة روما الكاثوليكية المقدسة وتعلمه للناس أو تعظ به ، .. كما أعلن إنكارى للرأى المدان الذى ناديت به .. وهو أن الشمس مركز العالم . وأن الأرض هى التى تتحرك حولها . وبذلك أعود لرأى الكنيسة وهو أن الأرض مركز العالم .. »

هكذا كانت كلمات جاليليو يوم ٢٢ يونيو سنة ١٦٣٣ ميلادية أمام المحكمة الكنسية التى عقدت له وقد قدم أمامها بتهمـة عقوبتها الإحراق حيا .

هذه القصة السريعة . تصور موقف الكنيسة الأوروبية من العلم فى القرون الوسطى ، وهو موقف كان سببا فى فصل الكنيسة عن الدولة ، كما كان سببا فى تأخر الدولة والكنيسة معا . ولو تأملنا موقف الإسلام

من العلم فسوف نراه مختلفا كل الإختلاف . فالإسلام هو العلم الكلى ، وهو يقدر العلم الجزئى ويدعو إليه ويعتبر التخلف فيه خطيئة دينية . ولعل هذا هو السبب الذى دعا بعض حكام المسلمين القدامى إلى تنحيه الدين عن مركز القيادة كى يستقر لهم وسط دنيا الجهل أمان الحكم .

ولقد افتتح الإسلام عهد الرشد العقلى بنزوله على نبى أمى ، وقوله فى أول كلمات الرسالة الإسلامية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .. ثم أمره تعالى : بعد ذلك لنبيه الكريم .. « وقل رب زدنى علما » .

وليست الحضارة الغربية التى تسود العالم اليوم بتقدمها العلمى الهائل .. ليست هذه الحضارة فى أحد جانبيها إلا بعض فضل العرب على أوربا بعد نزول الإسلام على العرب .

إن الحضارة الغربية - ككل حضارة - لها عنصراها أو جانباها : العنصر المادى أو نظرتها إلى المادة وتعاملها معها ، والعنصر النظرى أو نظرتها إلى الفكر وتعاملها معه .

ولقد سادت الحضارة الغربية بعنصرها المادى أو تعاملها مع المادة ، إبتداء من الثورة الصناعية إلى عصر تحطيم الذرة وسفن الفضاء والصواريخ .

أما جانب هذه الحضارة الفكرى فلم يعد يلهم أحدا من العالم شيئا ، ونظريات السياسة والأخلاق والفكر تتغير يوما بعد يوم ولا تستقر على حال .

ورغم الثراء العظيم الذى نالته الحضارة الغربية فى جانبها المادى نراها فى جانبها النظرى والروحى أقرب ما تكون إلى الشحوب والفقر .

ولكن ما هو مصدر ثراء العنصر المادى من هذه الحضارة ، تثبت الدراسات العلمية أن الإسلام هو صاحب الفضل فى ثراء الحضارة الغربية فى جانبها المادى ، وإنه سبب خصوبة هذه الحضارة ، ذلك أن التفكير العلمى الحديث أو منهج الملاحظة والتجربة واستقراء القوانين بعد ذلك .. هذا المنهج نشأ فى ظل الإسلام وقدمته الحضارة الإسلامية إلى الغرب .

إن روجيه بيكون يقرر فى كتابه أن ابتكار المنهج التجريبى كان من صنع علماء المسلمين كالكندى والبيرونى وابن سينا وابن الهيثم كما يقرر أن

المنهج الإسلامى الذى نشأ فيه هؤلاء العلماء ، كان هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقيقية التى تغيرت أوربا بعد أن أخذت به .

فضل الإســلام على العلم

يحتل تمثال الإمام الغزالى فى الفاتيكان مكانه كقديس وعالم تعتبر الكنيسة فكره مؤهلا لاعتباره قديسا .. ويتحدث علماء أوربا عن البيرونى فيعتبرونه أكبر عقلية علمية ظهرت على وجه التاريخ .. ويرون مراجعه عن العقائد فى الهند من أوثق المراجع فى عقائد الهند ، كما أن صور ابن الهيثم وتماثيله لم تزل قائمة فى قاعات المحاضرات بكليات العلوم فى أوربا ودول الغرب .. ولم تزل نظرياته فى الضوء بداية للبحث فى الضوء . ولم يزل ابن سينا معتبرا من طلائع علماء الطب الدارسين فى الجسد الإنسانى ، ولم تزل نظريات الكندى فى الطب والموسيقى موضع دراسة الغرب اليوم ، ولم تزل تجارب ابن حيان فى الكيمياء جزءا من تاريخ الكيمياء فى الغرب ، وتعرف أوربا اليوم عن علمائنا المسلمين أكثر مما نعرف عنهم فقد أخذت عنهم واستمرت بينما لم نأخذ نحن عنهم ولم نستمر ، ولقد كان العلم بمعناه المادى الأوربى الحديث أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم ، ولم يكن العلم العربى وحده هو الذى بعث فى أوربا الحياة ، بل

ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت أشعتها على الحياة الأوروبية .

يقول روجيه بيكون ...

« أن ما يدين به عالمنا لعلم العرب لا يكمن فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة في دنيا المادة .. بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر ، إنه يدين لها بوجوده نفسه ، ولقد كان العالم القديم خلوا من العلم ولم يعرف اليونانيون (فى علوم المادة) هؤلاء الأساتذة المتأنين الذين يجمعون المعلومات ويستخدمون المنهج التجريبى كما عرفه المسلمون . عرف اليونانيون ذلك فى العلوم النظرية كالفلسفة والأدب والفن والجمال والأخلاق ، ولكنهم لم يعرفوا ذلك فى الطبيعة أو الكيمياء أو الطب أو الفلك ، وكان استخدام المنهج التجريبى فى هذه العلوم المادية مقصورا على العرب والحضارة الإسلامية » .

وهذا الكلام الذى يقرره عالم جليل من علماء أوربا ليس موضع بحث العلماء الغربيين اليوم فهم يعترفون بذلك .. لكنهم يقولون أن ذلك كان فى الماضى .. أما الحاضر فلا يعرف غير حضارة الغرب

وتقدم الغرب .. وعلى من يريد التقدم أن يأخذ عنها .
ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن هذه الدعوة خاطئة ومضللة ، خاطئة لأنها تحاول قصر العبقرية على الغرب وتحاول أن تجعل للأصالة والإبداع أرضا محددة هى الغرب ، وهى مضللة لأنها تحاول أن تصرف المسلمين عن منابع القوة الحقيقية فى دينهم إلى الحضارة الغربية ، ويرى أن الواجب علينا أن نسترد بضاعتنا التى أخذت منا .. نسترد المنهج التجريبى ونعود إلى طبيعتنا وأصالتنا فنخترع ونبدع ونكون من قادة الإنسانية ، ونفضل أوروبا فى شيء آخر ، نفضلها فى الأساس فنعمل بتوجيه من الله ، ونفضلها فى الغايات فنعمل لوجه الله تعالى .

ولقد كان تقدير الإسلام للعلم واضح من قصة آدم وكيف أسجد الله له الملائكة لعلمه بأسماء ما غاب عنهم ، وهو واضح من أوامر الإسلام المتعددة بالسياحة فى الأرض والنظر فى الكون والنفس بعد ذلك .. وهو واضح من أمر الله تعالى لرسوله : « **وقل رب زدنى علما** » . وهو واضح من قوله تعالى : « **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** » .

فجعل شهادة أولى العلم تأتى بعد شهادة الملائكة مباشرة . وهو واضح لقوله صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقا يبتغى به علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة » . « وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » . « وأن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض . وفضل العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .. وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم .. فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » .

فضـل الإسـلام على الشـجاعة

من أحد أعماق القرآن الصافية نشأ المنهج العلمى أو التجريبى فى التعامل مع المادة ، ومن أحد أعماق القرآن الصافية نشأ المنهج الروحى فى التعامل مع ما وراء المادة ، أو التصوف .

سئلت عائشة رضى الله تعالى عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » والقرآن لا يعبأ بأن يقذف بكلمات الحق على بطش الطغاة بغير خوف ، فالقرآن هو الحق ، والحق لا يخاف الباطل .

وبمثل خلق القرآن كان الصوفية يتعاملون مع الطغيان فى عصرهم . وكانت شجاعتهم دليلا على مدى التحرر العقلى والجرأة التي يؤتاها من يؤمن بالله حق الإيمان .

إن ابن قتيبة الصوفى يتحدى ابن طولون دفاعا عن المظلومين ، فيرميه ابن طولون فى السجن ، ويمرض ابن قتيبة وتنهار صحته ، ويوجه إليه ابن طولون من يعرض عليه عشرة آلاف دينار مقابل أن

يعلن الصوفى رضاه عن أعماله .. فيرد الصوفى : « والله لملك ابن طولون أهون عندى من كلمة باطل » .

ويقول أبو حازم الصوفي : « إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم » .

ويسقط الحلاج خلافة المقتدر الباغية هاتفا : « ليس من القوة الإيمانية أن أرجع عن قولى فى الطاغية » . ويبيع الصوفى عز الدين بن عبد السلام قاضى مصر مماليك مصر وحكامها بيع الرقيق ليكسر أنوفهم يوم تجبروا على الخلق .

ويقول الصوفى عمر بن عبيد لأحد الخلفاء وهو يختال وسط حاشيته : « يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فإنك ميت وحدك ومحاسب وحدك ومبعوث وحدك ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا » .

ويستدعى الحجاج بن يوسف الثقفى جبار العراق يوما الصوفى طاووس اليمانى محاولا استمالته وإرضاءه ، ويخلع عليه عباءة ثمينة ، فيحرك الصوفى كتفيه حتى تسقط الخلعة ، ويأمر الحجاج الصوفى أن يحضر له المحبرة إشارة إلى أنه سيكتب له بعطاء ، فيأبى طاووس أن يمد يده إليها ، ثم يسأله الحجاج مصرحا بعد فشل التلميح ، يا أبا الفضل أعليك دين ، وهنا يقول الصوفى نعم .. تساءل الحجاج مرتاحا : ما مقداره ؟ قال الصوفى : دين لربى .. أن أنذرك يوما لا تغنى فيه عنك من الله تلك السيوف التى تحيط بك .

ويقصد إليه ذات يوم أحد أبناء سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فلا يهتم بابن الخليفة ، ولا يلتفت إليه ، فيقال له : ابن أمير المؤمنين . فيقول : أعرفه وقد أردت أن أعلمه أن لله عبادا يزهدون فيه وفى أبيه .

ويرسل ابن عربى خطابا إلى السلطان الغالب بأمر الله يقول له فيه :

« فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من

أخسر الناس أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا يكن شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم ، وإظهار المعاصى ، وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة ، فإن الله أقوى منك ، فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسئول عن ذلك .

« فيا هذا قد أحسن الله إليك ، فأنصف المظلوم من الظالم ، ولا يغرنك أن الله وسع عليك سلطانك ، وسوى البلاد لك مع المخالفة والجور وتعدى الحدود ، فإن ذلك الإتساع مع بقائك على مثل هذه الصفات ، بإمهال من الحق لا إهمال ، وما بينك وبين أن تقف بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى ، وتصل إلى الدار التى سافر إليها آباؤك وأجدادك » .

وكذلك كانت شجاعة الصوفية إزاء جبابرة الأرض وكذلك كانت شجاعة من كان القرآن خلقه إزاء من يستمد قوته من هواه ، إن من يدرك أن الله تعالى يضمن النصر للمؤمنين ، لا يخيفه أن يقذف بكلمة الحق فى وجه الطغاة .

قال تعالى : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » .

وقال عز وجل : « **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** » .

فضـل الإســلام على الفــن

قدمت الحضارة الإسلامية للعنصر المادى من الحضارة الغربية ، ذلك المنهج العلمى لتسخير الطبيعة والكون ، فماذا قدمت حضارة الإسلام للجانب النظرى من الحضارة الحديثة ؟ ماذا قدمت من دنيا الفلسفة والفن والأخلاق والجمال .

ربما كان أخطر ما قدمته الحضارة الإسلامية هو الحب .

ولقد عرف العالم الغربى الحب بمعنى الرغبة الجسدية حتى القرن الثانى عشر ، ثم بدأ تأثرهم فى هذا القرن بوهج انبعث من الصوفية الإسلامية ، وكان وصول الوهج إلى أوربا هو المسئول عن ميلاد الحب بمعناه الحديث ، وأثر ذلك على الأدب والفن الأوربيين أعظم تأثير وأكمله .

يعتقد من يؤرخون للعلاقات الإنسانية أن الظاهرة المعقدة التى يسمونها الحب فى الغرب ، قد استمدت كثيرا من أصولها من الشرق ، ولقد ولد هذا الحب خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى

جنوب فرنسا حيث التقى تياران انساب أحدهما من آسيا الصغرى وإيران وجاء الآخر من العالم العربى .

يقول المؤرخ شارل سينيوبوس : « إن الحب من مخترعات القرن الثانى عشر » . هذه العبارة التى رددها الكثيرون بارتياب شديد وتساءلوا : ماذا كان الناس يصنعون قبل القرن الثانى عشر ؟ .. هذه العبارة الأخيرة فندتها دراسات كثيرة من بينها كتاب دنى دى روجمون ، فلفظة الحب التى نعنى بها نحن العاطفة والهوى . لم تكتسب وجودها بمعناه الآن إلا فى القرن الثانى عشر .

وكان السبب ما أدخله الشعراء المتجولون « التروبادور » الذين ظهروا فى جنوب فرنسا وأسبانيا ، وكلمة « تروبادور » قلب للكلمة العربية دور طرب ، ولم يلبث الشعراء المتجولون أن انتشروا فى أوربا وتمكنوا من قلب مجرى الشعور وتطوير الفنون وتبديل العادات طوال قرون عديدة ، ولقد كتبت أعظم رواية حب تحت تأثير الشعر التروبادورى وهى رواية « تريستان وايزولت » .

ونتيجة لوقوع الحب فى منطقة الخطيئة ، كانت

النفس تتوق فى القرون الوسطى إلى تعبير جديد ، حمله إليها الشعراء المتجولون الذين يستقون شعرهم من الشعر العربى الذى ذاع فى القرن الحادى عشر فى الأندلس ، خاصة فى قرطبة التى كانت مهدا لمذهب شعرى نبغ فيه ابن حزم وابن قزمان والمعتمد الأشبيلى .

ومن هذا الشعر العربى استعار جيوم دى بواتييه وتلاميذه الصيغ والموضوعات والأنغام لأغانيهم ، وأيدت هذه النظرية الأبحاث التاريخية والأدبية والفلسفية العديدة التى حملت إلينا فى خلال العشرين سنة الأخيرة أدلة وبراهين حاسمة على ذلك .

فقد ثبت أن جيوم دى بواتييه رحل إلى الشرق فى حملة صليبية وأقام فيه زمنا طويلا وتزوج إمرأة أسبانية واقتبس فنه من شعراء العرب الذين كانوا على مذهب قرطبة الشعرى .

ولقد كان شعر الحب عند عرب الأندلس المسلمين متصلا اتصالا شديدا بالمذهب الصوفى الذى يمثله الحلاج وروزبهان الشيرازى والسهر وردى الحلبى وابن عربى الأندلسى،وكان هؤلاء الصوفية قد

لجأوا إلى صياغة الشعر فى الحب الدنيوى للإعراب عن حبهم الإلهى ، ويحس الباحثون فى الشعر التروبادورى بهذه اللمسة ، لمسة التصوف المهلك فى الحب ولمسة الفناء الغريب .

ولقد تأصل فى أوربا مفهوم الحب العذرى بعمق ، حتى وقع كثير من الكتاب فى الخطأ وحسبوا أنه وجد منذ أقدم العصور . ولم يكن ممكنا قبل الإسلام أن ينشأ هذا الحب ، ذلك أن الإعتراف بوحدانية الإله وطلب النقاء يؤديان إلى الإعتراف بوحدانية الحب ووجوب قصره على رجل واحد وامرأة واحدة . والإسلام يجعل الحب بمعنى الهوى رمزا وصورة للروابط بين النفس وخالقها . .

هذه شهادة رجل يعتبرونه أصدق المؤرخين للعلاقات الإنسانية ، وهى شهادة تقول كيف استطاع التصوف الإسلامى أن يؤثر على روح الجمال والفن والأدب والموسيقى فى حضارة الغرب بخلق مانسميه اليوم بمفهوم الحب العذرى .. ونحسب مخطئين أنه وجد منذ أقدم العصور .

فضل الإسلام على حرية العقل

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، وأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم له وإليه راجعون .

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . » .

اجتثت بذلك جذور الوثنية ، وطهر العقل من الأوهام الفاسدة ، وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة ، بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين ، وفرض على المسلمين أن يقولوا كما قال نبيهم إبراهيم عليه السلام : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

« إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره ، وصار الإنسان بالتوحيد عبدا لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ما سواه ، ولم تعد معايير التفرقة بين الناس شيئا غير عملهم **« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »** ، ولم يعد أكرم الناس هو أغناهم أو أقواهم أو أشدهم بطشا ، وإنما صار أكرمهم عند الله أتقاهم .

وجاء الإسلام بتقاليد تشمل مبادىء المساواة بين الأرواح الإنسانية أمام الله ، وتقرر أواصر الأخوة العالمية بين جميع المؤمنين ، بغير نظر إلى العنصر أو اللون ، وبذلك قضى على آلاف النظريات السخيفة ، التى كانت تقرر السيادة للون دون لون ، أو عنصر دون عنصر ، أو دين دون دين .

يقول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد :

« تم للنوع الإنسانى بمقتضى الإسلام أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى

والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطره عليها .

وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم أن نشأة المدنية فى أوربا إنما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وإن لهم حقا فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان ، إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام »

ومن أخطر ما جاء به الإسلام ، رفعه الحجر عن عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، فقد أطلق الإسلام حرية العقل فى فهم ما جاء عن الله سبحانه وتعالى ، واتهم من يحمل الكتب السماوية بغير أن يفهمها أو يعمل بها بأعظم التهم . قال تعالى « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .**

كما حمل الإسلام على الأمية وتلاوة الألفاظ

تعبدا بالأصوات والحروف ، قال عز وجل : « **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون** » .

وبهذه الدعوة إلى الفهم ، فرض الإسلام على كل إنسان أن يأخذ بحظه من علم ماأودع الله فى كونه وما قرر من شرعه فى كتبه .

فى النعمـــة

يتساءل أبناء هذا العصر عن المعجزات ، وأعظم المعجزات هى نعمة الله علينا فى أحكام الجسد وإعجازه وإبداعه ، إن مخ الإنسان لا يتساوى مع العقل الألكترونى إلا من حيث المبدأ ، ويختلف معه من ناحية الدقة والتعقيد .. فبينما يستحيل وجود جهاز صنعه الإنسان يضم بضعة آلاف من الصمامات والتوصيلات نجد الجهاز العصبى للإنسان يحتوى على ١٥ مليار خلية عصبية ..

قال الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

يؤكد البروفيسير شنايبنوخ عالم الهندسة الألمانى أن الجهاز العصبى للإنسان معقد مائة ألف مرة عن كل النظم التكنيكية المعروفة على الأرض ..

ويقول العلماء : لو تخيلنا أن فى مقدور الإنسان أن يقوم برسم التوصيلات الخاصة بجهاز الإنسان العصبى ، وذلك على غرار ما يقوم به الأخصائى التكنيكى حين يقوم برسم التوصيلات الألكترونية . لو

أمكن ذلك لاحتجنا إلى ورقة تعادل مساحتها عدة كيلو مترات مربعة ، وهذا قياس مستحيل فتوصيلات الإنسان الخاصة بجهازه العصبى مجهولة تماما لنا ، ولا زلنا حتى اليوم رغم تقدم الدراسات الطبيعية نجهل تماما أسرار عمل المخ .. والمخ جهاز واحد من أجهزة الإنسان العديدة .

وإلى جوار ملايين العمليات الكيميائية والبيولوجية التى تحدث فى الثانية الواحدة فى جسم الإنسان ، وتمثل نوعا راقيا من أنواع التخصص الذى يجهله أهل الأرض .. حتى لتقوم الكرات البيضاء بحراسة الجسم إلى جوار ذلك تجىء معجزة هذا الصنع الفريد فى قدرته على إنجاب مخلوقات مماثلة للمحافظة على البقاء ، وهذه خاصية يتميز بها تركيب الإنسان عن سائر المصانع المعقدة .. قال تعالى : **« أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون »** .

يعتقد علماء الكيمياء أن تركيب المعدة المعجز وعملياتها الكيميائية التى تبدأ من استقبال الطعام وتنتهى بتحويله إلى طاقة .. هذه العمليات لو حاولنا تقليد عشرها على الأرض فسوف نحتاج إلى معمل

تزيد مساحته عن مساحة مدينة القاهرة ، وسوف نحتاج إلى أجهزة ومواد كيميائية لا يكفى ذهب الأرض كله لشرائها .. كل هذا التعقيد والتركيب خلقه الله فى حجم برتقالة صغيرة هى المعدة .

إن نعم الخالق على الإنسان فى نفسه لا تحصى ولا تعد .. ونعمه عليه فى الآفاق لا تحصى ولا تعد .. وحين حاول بعض العلماء أن يعرفوا ما تقدم الشمس إلينا من فائدة ، وحين حاولوا ترجمة هذه الفائدة إلى مقابل مادى أو ثمن .. خرجوا بأرقام مذهلة .

إن الشمس تصب فى الفضاء فى الثانية الواحدة أكثر من أربعة ملايين طن من الطاقة ، لو وصلت كلها إلى الأرض لجفت بحارها وأنهارها ومحيطاتها .. ولأحرقتها في ثوان .. ولقد شاءت رحمة الخالق ألا يصل إلى الأرض من طاقة الشمس سوى أربعة أرطال فى الثانية .. فإذا كان علينا أن ندفع ثمن ما تمدنا به الشمس من ضوء وحرارة بلا مقابل .. فإن علينا أن ندفع ٦٨٠ ألف مليون جنيه كل ساعة .. وهذا العدد كبير جدا لدرجة أن بعض الناس لا يستطيعون قراءته فضلا عن فهمه .

ويتقدم العلم كل يوم .. ويعرف الإنسان مزيدا من نعم الله عليه فى نفسه وفى الكون مصداقا لقوله تعالى :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فى الزهـــد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك » .

قال الصوفية فى الزهد : وإذا أصابتك مصيبة كنت بثوابها أفرح منك بها لو بعدت عنك .

ويتفق الحكماء على أن الدنيا هى النفس وما هويت فإذا ترك العبد ما تهواه نفسه فقد ترك الدنيا .

قال تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

ولقد فهم خطأ من ترك الدنيا أن المعنى المقصود هو ترك الاشتغال بها والسعى فيها وهجرها للتعبد بعيدا عن مغريات الحياة ، وهذا الفهم خطأ من

وجهة نظر الإسلام ومن وجهة نظر المصلحة العليا لأمة المسلمين سواء كان ذلك بالأمس أم اليوم .

هو خطأ من وجهة نظر الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية فى الإسلام » .

بلغ النبى يوما أن عثمان بن مظعون قد اتخذ بيتا فقعد يتعبد فيه فأتاه الرسول عليه الصلاة والسلام فأخذ بعضادتى باب البيت الذى هو فيه .

وقال : « يا عثمان ، إن الله عز وجل لم يبعثنى بالرهبانية « كررها مرتين أو ثلاثا » وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحاء » .

ولو رجعنا لنشأة الزهد فى بداية التاريخ الإسلامى لاكتشفنا أن أحد عوامله كان ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعى وسياسى قائم ، ذلك أن اتساع الفتوحات الإسلامية وازدهار المسلمين وارتماء الدنيا تحت أقدامهم ، خلقت صراعا بين الإيمان القوى والدنيا المقبلة ، وكان الحل هو الانزواء عن الدنيا ورياضة النفس على الطاعات .

كذلك حدثت فى القرن الأول من عهد الإسلام

حوادث سياسية خطيرة مثل الحروب الدامية بين على ومعاوية ، وتبع كل هذا اضطهاد لآل البيت وتشريد لهم وتقتيل ، وكبت للحرية الشخصية لم يسبق له مثيل ، وأدخل ذلك الرعب فى قلوب المسلمين وقضى على شعورهم بالأمان ، وحرك فيهم نزعات العزلة والفرار من الحياة طلبا للسلامة ، وقدمت خلوات الزاهدين هذه السلامة والراحة .

وكانت النكبة الكبرى حين حل النظام الروحى الداخلى محل النظام السياسى الخارجى ، واستبدل الناس بالجهاد فى الدنيا جهاد الخلوات والعكوف على العبادة . ولقد كانت ماساة كبرى يوم ترك الإسلام مكانه فى قيادة البشرية وقيادة المسلمين .

ولقد منى الإسلام بالخصب الزائد فى نفوس الزاهدين الذين أصبحوا مدارس فيما بعد وطرائق ولدت منها الصوفية ، وكان بقاؤه بالخصب هنا والشحوب فى حياة عامة المسلمين .. كان هذا البقاء المزدوج سببا فى ضعف دنيا المسلمين ودينهم معا .

ضعف دين المسلمين لأن عكوف بعضهم على العبادة واقتصارهم عليها ، فتح لتفكيرهم مزالق

خطيرة فتحول الإسلام إلى أشعار حب وانغام مناجاة ودهول وجذبة وانفراد وتوحش ، ولم يعد عملا يغير وجه الحياة .

كما ضعفت دنيا المسلمين لأنهم تركوا حقيقة الإسلام واكتفوا بقشوره ومراسمه وظاهره دون حقيقته ودعاهم ذلك إلى عدم معرفة دورهم فى الدنيا وبالتالى عدم القيام به .

وهكذا أخذ عامة المسلمين بالقشور ، حاول خاصة المسلمين وأهل الخلوات النفاذ وراء اللب ، فلا أفلح الذين أخذوا بالقشور ، ولا وصل أكثر من حاولوا النفاذ وراء اللب ، وكان عدد الهلكى أكثر من عدد الناجين فى الحالين .

يقول الرسول : « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال » . كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشرف الغيب بكلمته فيحس ما سيكون عليه حال المسلمين بعده إذ انقسموا فريقين : أحدهما يحرم الحلال كخاصة المسلمين العاكفين على خلواتهم ، والآخر يضيع المال والحياة كعامة المسلمين الذين يأخذون بمظاهر الدين دون

حقيقته .

قال الرسول : « إنما الزهد فى الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما فى يدك » . ولكي يثق المسلمون بما فى يد الله أكثر من ثقتهم بما فى أيديهم ينبغي أن يكون فى أيديهم شيء . ولقد أصبحوا اليوم وليس فى أيديهم شيء من الدنيا ، ولعل الزهد المطلوب اليوم هو الزهد فى زهدهم هذا وعودتهم إلى الله .

إن الله تبارك وتعالى يريد للمسلمين أن يملكوا الدنيا ، ويكونوا من سادتها ، ويتحكموا فيها ، ويغيروا من شكل الأرض والعلاقات الإنسانية ، ثم ليزهدوا بعد ذلك بقلوبهم فى الترف والتنعم ويكونوا من رجال الآخرة .

في النصيحـــة

عن أبى رقية تميم بن أوس الدارانى رضى الله تعالى عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة » قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ..

من الأحاديث الجامعة هذا الحديث ، النصيحة كلمة جامعة معناها إرادة جملة الخير .. ومعنى قوله « الدين النصيحة » أن النصيحة عماد الدين وقوامه كقوله : الحج عرفة ، أى عماده ومعظمه .

وأما تفسير النصيحة وأنواعها فقال العلماء : النصيحة لله تعالى معناها منصرف إلى الإيمان به ، ونفى الشرك عنه ، وترك الإلحاد فى أسمائه ، وذكره بصفات الجلال والكمال كلها ، وتنزيهه وتقديسه ، والقيام بطاعته واجتناب معصيته ، والحب فيه والبغض فيه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته والشكر عليها ، والإخلاص فى جميع الأمور ، ودعاء الناس إلى الحق والتلطف بهم .

قال الخطابى : وحقيقة هذه الأوصاف راجعة

إلى العبد فى نصحه نفسه ، فإن الله سبحانه وتعالى غني عن نصح الناصحين .

قال تعالى : « **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين** » .

وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى فتكون بالإيمان بأن كلام الله تعالى فى تنزيله لا يشبهه شيء من كلام الناس ، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، والخشوع عند تلاوته .. قال تعالى : « **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** » . ومن النصيحة لكتاب الله تعالى الدفاع عنه .. والتصديق بما فيه .. وإقامة أحكامه وشريعته ، قال تعالى : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** »

ومن النصيحة لكتابه تعالى تفهم علومه وأمثاله ، والإعتبار بآياته ، والتفكير فى عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه والدعاء إليه .

وأما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ،

وطاعته فى امره ونهيه ، ونصره حيا وميتا ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ، واعظام حقه وتوقيره ، وإحياء طريقته ، وإجابة دعوته ، ونشر هديه وسنته ، ونفى التهمة عنها والتفقه فى معانيها ، والدعاء إليها ، والتلطف فى تعليمها ، وإعظامها وإجلالها والتأدب عند قراءتها ، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم ، وإجلال أهلها .

أما النصيحة لأئمة المسلمين وحكامهم ، فتكون بمعاونتهم على الحق ، وأمرهم بالحق ، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف ، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم ، والصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، والحرص على حقوق المسلمين والافتاء بالحق .

يذكر تاريخ الافتاء فى القرون الوسطى للشيخ الإمام محيى الدين النووى رضى الله عنه ، يذكر له التاريخ فتوى أجاب فيها بالحق ولم يخش فى الله لومة لائم .

لما خرج الظاهر بيبرس إلى قتال التتار بالشام ، طلب فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال الرعية لينتصر به فى قتال العدو ، فكتب له فقهاء الشام بذلك ،

فقال هل بقى أحد فقيل نعم ، بقى الشيخ محيى الدين النووى ، فطلبه فحضر ، فقال له : اكتب خطك وإمضاءك مع الفقهاء ، فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ، فقال الشيخ محيى الدين : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ، ثم من الله عليك وجعلك ملكا ، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له ثروة من الذهب ، وعندك مائتا جارية لكل جارية صندوق من الحلى ، فإذا انفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالملابس المجردة بدلا من الأوشحة الموشاة ، وبقيت الجوارى بثيابهم دون الحلى ، أفتيتك بأخذ المال من الرعية .

أما النصيحه لعامة المسلمين فإرشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم ، وإعانتهم عليها ، وستر عوراتهم ، ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص ، والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ، وأن يدافع عن أموالهم وأعراضهم ، وحثهم على إقامة تشريع الله داخل نفوسهم كى يقوم فى الحياة ذاتها .

فى الخـــوف

لا يصد عن نار الجحيم مع كونها محفوفة بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا الخوف من الله تعالى .

والخوف هو تألم القلب ، واحتراقه لتوقع المكروه عند الإستقبال ، وأخوف الناس لله أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أخوفكم لله » .

وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ..

قال تعالى : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** » وقال عز وجل : « **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** » .

قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ... فإنك إن قلت لا ، كفرت . وإن قلت نعم كذبت .. والخوف عند الصوفى هو ألم يكف الجوارح عن المعاصى ويلزمها الطاعات ، وما لم يؤثر الخوف

فى الجوارح فهو حديث نفسى وحركة خاطر . ولا يستحق أن يسمى خوفا ..

قال العارفون بالله : إذا كملت المعرفة بالله أورثت جلال الخوف ، واحتراق القلب ، وظهر أثر الحرقة من القلب على البدن بالنحول والبكاء ، وعلى الجوارح بكفها عن المعاصى وإلزامها الطاعات . وعلى الصفات بأن يقمع الشهوات ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن داخله السم .

قال الإمام الغزالى : « ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل هو من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه » .

خص الله تعالى التقوى بالتكريم ، فأضافها إلى نفسه - سبحانه وتعالى - « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . والتقوى هى الكف عن الذنوب والقيام بالطاعات بمقتضى الخوف . والله تعالى يأمر بالخوف ويجعله من شرائط الإيمان قال تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » وقال : « ما لكم لا ترجون لله وقارا » أى لا تخافون ..

سألت عائشه رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الآية : « **الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** » أهو الرجل يسرق ويزنى .. قال : « لا .. بل الرجل يصوم ويصلى ويخاف أن لا يقبل منه » .

والخوف إذا ولدته الخشية وأثمر بعد ولادته التقوى كان خوفا يسقط الذنوب ويمحوها .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع » .

والخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه . فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يفيض الهيبة والحذر والخوف .

والخوف من الله يورث الإنسان شجاعة لا حد لها على الأرض فلا يطاطىء رأسه لغير الله ولا يرجو سواه . لما وضع سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم فى المنجنيق قال : حسبى الله ، فامتحن بظهور

جبريل عليه السلام له وقد جاء يسأله : ألك حاجة ؟ قال إبراهيم : « أما إليك فلا » . وكان ذلك وفاء يحققه قوله : حسبى الله .. فأخبر الله تعالى عنه فقال : « وإبراهيم الذى وفى » أى وفى بمعنى قوله حسبى الله ..

وكان رسولنا عليه الصلاة والسلام إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

وعن أنس أنه قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل : مالى لا أرى ميكائيل يضحك ؟ قال جبريل عليه السلام : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار .

فى الرجـــاء

الرجاء جناح يطير به العبد إلى قرب الرحمن وروح الجنان ، والطريق إلى الرجاء بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء قد حف بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء .

والرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده .. لكن ذلك المحبوب المتوقع لابد أن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لحصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظارا مع ضياع الأسباب واضطرابها فاسمه الغرور ، والحمق عليه أصدق .

والذين يرتكبون الذنوب ولا يعرفون عن ربهم إلا أنه غفور رحيم .. هؤلاء ينطبق عليهم وصف الغفلة أكثر من وصف الرجاء .

يعلم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة .. والقلب كالأرض والإيمان كالبذرة فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، جارية مجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب

المستهتر في الدنيا المستغرق فيها ، كالأرض السيئة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع.

يقول الإمام الغزالي : ينبغي أن يقاس رجاء العبد في المغفرة برجاء صاحب الزرع الذي شقى وعمل في حقله ، ولا يصدق اسم الرجاء إلا على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره .. وذلك فضل الله تعالى ، يصرف المفسدات ويقبل العمل .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجرى على اليبس

والعمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم لله قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله » ، والحب يغلب عليه الرجاء ، قال تعالى : « **لا تقنطوا من رحمة الله** » فحرم أصل اليأس .

وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أفضى إليه : أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ، لأنك قلت

أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذنب ولم ترجنى ، ولم نظرت إلى غفلة أخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدى بى » .. » وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى اليأس من رحمة الله لكثرة ذنوبه : « يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » .

قال تعالى : « **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** » .

وقال عز وجل : « **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** » .

جاء فى الخبر : « إذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته : أنظروا إلى عبدى ، أذنب فعلم إن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالعفو ، أشهدكم أنى قد غفرت له » .

والله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الأم

بولدها .. قال الثورى المتصوف :

« ما أحب أن يجعل حسابى إلى أبوى يوم القيامة لأنى أعلم أن الله تعالى أرحم بى منهما » .

وقال الجنيد المتصوف رحمه الله تعالى : « إن بدت عين من الكريم ألحقت المسيئين بالمحسنين » .
وعن مسلم من حديث أبى أيوب أنه حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم » .

فى التقــوى

يقول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . والتقوى هى جماع الخير ، ومعناها أن يتحرز المرء بطاعة الله عن عقوبته .

يقال اتقى فلان بترسه ، أى رفع ترسه ليدفع عن نفسه السهام التى تريد قتله ، وهذا هو معنى التقوى الحقيقى .

هو حياة تدفع عن نفسها الخطيئة .. وأصل التقوى اتقاء الشرك .. ثم بعده اتقاء المعاصى والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشبهات .

وإتقاء الشرك هو أول درجات التقوى ، والشرك هو تعظيم ما سوى الله ، أو الإعتقاد فيه أو عبادته أو حبه أكثر من حب الله .

والشرك أخفى من دبيب النملة على الصخرة السوداء فى الليلة المظلمة ، ولو أن إنسانا خشى إنسانا أكثر مما يخشى الله فقد أشرك .

قال الصوفية فى التقوى : إنها على وجوه ، هى

للعامة تقوى الشرك ، وللخاصة تقوى المعاصى ، وللأولياء تقوى التوسل بالأفعال ، وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال .

تقوى العامة عبادة الله وحده ، وتقوى الخاصة هجر المعاصى تماما ، وتقوى الأولياء أن يفهم الولى أن أعماله ليست هى التى توصله إلى الله ، إنما هو فضل الله ، وتقوى الأنبياء تكون بنسبة الأفعال إليه سبحانه إذ تقواهم منه إليه .

قال الكتانى : قسمت الدنيا على البلوى ، وقسمت الآخرة على التقوى ، وقال الجويرى : من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة ، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة . وقال سهل : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب جميعا .

وقال النصراباذى فى تعريف التقوى : التقوى أن يتقى العبد ما سوى الله تعالى ، من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا وأحب لقاء الله ، يقول تعالى : **« وللدار الآخرة خير للذين يتقون .. أفلا تعقلون »** .

وقال ذو النون :

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم
تحن إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نظر إلى محاسن امرأة فغض بصره في أول مرة أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه .

والحكم عام على كل أنواع التقوى . والتقوى بذرة تؤتي ثمارها من الخير العميم ، فمن عف عن المال العام بارك الله له في ماله الخاص ، ومن تحرج من السير حول طرق المعاصي وجد عطر الطاعة في وجدانه .

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

-أوصني .

قال : عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله فإنه نور لك .

فى رداء التقـوى

ألبسنى رداء التقوى منك .

تلك كانت كلمة الصوفى أبى الحسن الشاذلى فى أحد أحزابه وهو يدعو ربه .

اللهم ألبسنى رداء التقوى منك .

ما الذى يعنيه أبو الحسن الشاذلى بدعائه هذا ؟

يعبر الصوفى هنا عن تبدل الثياب الذى يعنى تبديل السلوك والشخصية ، يتجاوز قول بولس الحوارى حين قال : إن من أراد أن يتوب من البشر فعليه أن يلبس إنسانا جديدا ، ويخلع آدم القديم .

وكثيرا ما استخدم القدماء الثياب كرمز للإنسان نفسه ، واعتقد القدماء أن الثياب هى المرء نفسه ، أو على الأقل هى جزء منه ، وأن من ارتدى ملابس جديدة فكأنما ارتدى شخصية جديدة .

ولقد بدأت حياة الإنسان الواعية باتخاذه لنفسه ثيابا ، وفى رواية القرآن نعرف أن عصيان أبى البشر وزوجه قد كشفت لهما عن حقيقة جديدة فى حياتهما .

فأدركا ما هما عليه من عرى ولجا إلى أوراق الشجر يستران به عورتهما .

قال تعالى : « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

تمت الخطيئة الأولى وآتت ثمارها المريرة المقدرة سلفا فى علم الله عز وجل ، وهبط آدم وزوجه إلى الأرض ، وعلى الأرض عرف أبناؤهما قيمة الثياب ، ورمز تبديلها ومغزى هذا التبديل . قال تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » .

اللهم ألبسنى رداء التقوى منك .. يعنى ذلك أن الثياب إن كانت زينة الجسد الإنسانى وسترا له ، فإن التقوى زينة النفس الإنسانية وستر لها ، ورداء الجسد أقل شأنا من رداء النفس ، وإلى هذا المعنى كان أبو الحسن الشاذلى يقصد من دعائه ربه .. ألبسنى رداء التقوى منك .

وكثيرا ما ينزل الإنسا طائعا عن عظمة ثيابه ويستبدل بها رداء التقوى ، حين يعرف هوان المظهر إلى جوار أهمية الجوهر . عن عمر بن عبد العزيز أنه كان قبل أن يلي أمور المسلمين يشترى الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها ، فلما استخلف على المسلمين وصار مسئولا عنهم ، كان يشترى الثوب بخمسة دراهم ، فيقول ما أجوده لولا لينه . قيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إن لى نفسا ذواقة .. وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التى فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة وهى أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله عز وجل .

زهد عمر بن عبد العزيز فى رداء الدنيا .. ورغب فى لباس التقوى وآثره .

والزهد هو الناحية العملية من التصوف ، وهو أسلوب فى الحياة يحياه المؤمن .. ووجهة نظر يرى بها الدنيا ، وكل ما تحفل به من مغريات ، والزهد بمعنى الورع فى الدنيا والرغبة فى الآخرة شيء حث عليه الإسلام ، وبدأ به النبى عليه الصلاة والسلام ، وكثير من الصحابة مثل أبى ذر الغفارى وصديقه ابن اليمان وسلمان الفارسى والبراء بن مالك .

فى الطـريق

يقول تعالى : « **ألا لله الدين الخالص** » .

والإخلاص فى ذروته ، فى رأى أبى الحسن الشاذلى ، نور من نور الله استودعه قلب عبده المؤمن ، فقطعه به عن غيره فذلك هو الإخلاص الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله .

يقول تعالى : « **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** » .

وأول ما يبدأ به السالك إلى الله هو التوبة ، وتبدأ بالاستغفار ، وحقيقة الاستغفار أن لا يكون لك مع غير الله قرار .

ويمر الطريق إلى الله بأربعة أشياء : أولها الذكر وبساطة العمل الصالح وثمرته النور .. وثانيها التفكير وبساطة الصبر وثمرته العلم ، وثالثها الفقر مما سوى الله إلى الله وبساطة الشكر وثمرته المزيد منه ، ورابعها الحب وبساطة بغض شهوات الدنيا وبغض أهلها اللاهين ، وثمرة الحب الوصل بالمحبوب .

وتدعيما للتوبة وتثبيتا للإخلاص يحسن أن يخلو الإنسان وربه فترة من الزمن ، هى فترة العزلة أو فترة الخلوة ، يلازم فيها الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار .. قال تعالى : « **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** » .

ولابد للمريد من جهاد العدو ، والعدو على قسمين : عدو يأتيك من داخل النفس ، وعدو يأتيك من خارج النفس . والمسلم المريد لله عز وجل مأمور بجهاد العدوين فى نفس الوقت .. وهو مطالب بتصحيح إيمانه مع الوقت .. ويجىء تصحيح الإيمان من الشكر على النعم والصبر على البلاء والرضا بالقضاء .

فإذا أكرم الله عبدا نصب له العبودية لله .. وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، والعبد الذى أكرمه الله بالعبودية يؤدى كل طاعته فى وقتها .. سئل أبو الحسن الشاذلى مرة : ما الذى استفاده من طاعة الله وما الذى استفاد من معصيته . قال : استفدت من الطاعة العلم الزائد والنور النافذ

والمحبة ، واستفدت من المعصية الغم والحزن والخوف والرجاء .

وعلى المريد لله تعالى الأخذ فى الذكر .. كان أبو الحسن الشاذلى يكثر من الإذكار بالصيغة الآتية : « الحمد لله واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

فإذا ما خصص الإنسان لسانه للذكر وقلبه للشكر وبدنه لمتابعة الأمر فهو من الصالحين .

والزهد طريق من طرق السالكين إلى الله وحقيقة الزهد أن يفرغ قلب العبد مما سوى الله عز وجل ، ومن طرق السالكين التوكل ، والتوكل فى رأى أبى الحسن الشاذلى صرف القلب عن كل شىء سوى الله ، وحقيقته نسيان كل شىء سواه ، وسره وجود الحق دون كل شىء تلقاه ، وسر أسراره تملك وعيك لما يحبه ويرضاه .

ولا يصح التوكل إلا لمتق ، ولا تتم التقوى إلا لمتكل ، ويجىء الرضا بعد ذلك ، وهو الرضا من الله وعن قضاء الله لا عن النفس .. يقول الشاذلى : ألق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك

وإرادتك .

ويختم الشاذلى طريق السالكين بالمحبة .. والمحبة والرضا والزهد والتوكل هى بساط الكرامة عنده .. بساط الكرامة أربع : حب يشغلك عن حب غيره .. ورضا يتصل به حبك بحبه ، وزهد يحققك بزهد فى بريته ، وتوكل عليه يكشف لك عن حقيقة قدرته .

في الصــفاء

يقولون : أن التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء ، فهل التصوف هو الأخلاق ؟ . الجواب بالنفى . إن تاريخ البشرية يمتلىء بذوى الأخلاق السامية الذين ليسوا من الصوفية ، ولقد كان سقراط من أجمل الناس أخلاقا ، كان شجاعا عفيفا صادقا يؤثر أصدقاءه على نفسه ، وكان دنيا من الشجاعة والإنصاف والصدق والعدالة .. ورغم ذلك لم يكن صوفيا .

ويقولون : أن التصوف هو الزهد ، وحقا أن التصوف ليضم إليه جانب الزهد ، لكن التصوف ليس هو الزهد .. والزهد أنواع ، زهد فلسفى يخرج فيه الإنسان من هذا العالم المادى بطريقة عقلية من أجل هدوئه النفسى ، وهناك الزهد الدينى الذى يترك فيه الإنسان متاع الحياة الدنيا ، ليكون له نصيب من متاع الحياة الآخرة ، وهناك الزهد الصوفى الذى لا يريد فيه صاحبه متاعا فى الحياة الآخرة ، وإنما هو يزهد تساميا عن أن يشغله شيء سوى الله سبحانه وتعالى .

ويتحدث ابن سناء الملك عن الزهد فيقول : أن المنصرف عن طيبات هذه الدنيا ومتاعها يختص باسم الزاهد ، فإذا ترك متاع هذه الدنيا ليستمتع فى الآخرة فكأنه تاجر . ولكن المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستدنيا لشروق نور الحق فى سره فهذا هو الصوفى .

وإذا كان زهد الصوفى هو التسامى عن كل ما يشغله عن الله ، فهل معناه ترك الدنيا وصيرورة المرء فقيرا متجردا . هنا يختلف الزهد الدينى بمعناه الحديث المبتدع عن الزهد الصوفى بمعناه القديم السنى ، إن زهد الصوفى لا علاقة له بالثراء ، والصوفى أبو الحسن الشاذلى كان يدعو الله فيقول : « اللهم وسع على رزقى فى دنياى ولا تحجبنى بها عن أخرى » بمعنى أنه يطلب من الله أن يكون الرزق فى يده لا فى قلبه ، بمعنى ألا تستعبد المادة القلب أو تخضعه لها . ولقد كان النبى الملك سليمان ـ عليه السلام ـ زاهدا رغم ملكه العريض الهائل .

ليس التصوف أخلاقا فحسب وليس زهدا فحسب ولكنه يتضمن الأخلاق والزهد ويتجاوز ذلك

لأمر ثالث قيل أنه العبادة ، لكن العابد والصوفى يفترقان رغم مسيرتهما الواحدة ، يفترقان فيما يتعلق بالهدف ، فهدف العابد أن ينال الأجر فى العالم الآخر ، أما الصوفى فلا يريد إلا وجه الله تعالى .

يقول أحد الصوفية : « إلهى إن كنت أعبدك طمعا فى جنتك فلا تدخلنى فيها ، وإن كنت أعبدك خوفا من نارك فاحرقنى بها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم فأسألك أن ترينى إياه يارب » .

وأحيانا يعرفون الصوفى بأنه من تظهر على يده الكرامات أو خوارق العادات ، وذلك تعريف لا يحبه الصوفية أنفسهم ، إذ يرون أن الكرامات لعب تعطى للأطفال يلهون بها ولا يأبه لها الكبار . وقديما قال الجنيد من مقامه الركين : « سار رجال على الماء وهلك بالعطش رجال أفضل منهم » .

ما هو التصوف إذن ؟ ما هو تعريفه ؟ يختار الدكتور عبد الحليم محمود هذا التعريف فيقول : « التصوف صفاء ومشاهدة ، والصفاء ليس علما وليس دراسة كسبية وليس منطقا وبحثا ، الصفاء هو انصراف الإنسان بكل أفكاره إلى الله سبحانه وتعالى ،

والمشاهدة هى نتيجة الصفاء وثمرته .

يريد الصوفى معرفة يقينية تصل إلى حد المشاهدة أو الشهادة كما يريد الإسلام . تأمل الإسلام حين يتحدث عن أساس الإيمان فى ذروته فيقول : اشهدوا أن لا إله إلا الله ، لم يقل اعتقدوا أو قولوا . تجاوز هذه إلى الشهادة . إن المثل الأعلى فى الإسلام هو الشهادة ..

« أشهد أن لا إله إلا الله » .

وهكذا يتجاوز المسلم أقول وأنطق وأعتقد وأومن إلى أشهد ، فإذا انتهى إلى الشهادة فقد انتهى إلى القمة التى رسمها الإسلام .

فالتصوف إذن هو إرادة الشهادة ، هو الصفاء الذى يؤدى للمشاهدة أو الشهادة ، وإذا قال المسلم أشهد أن لا إله إلا الله وهو لا يشهد حقا فهو شاهد زور لأنه يقول الكلمة على غير صورتها الحقيقية .

فى المشــاهدة

الصفاء فى الصوفية وسيلة ، والمشاهدة فيها غاية فما الذى تعنيه المشاهدة ؟

هل تعنى رؤية الله عز وجل ومعرفته .

سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا . فى هذه الدنيا ، لا يستطيع أحد أن يرى الله أو يعرفه حق المعرفة .

قالت عائشة رضى الله عنها « من قال أن محمدا قد رأى ربه فقد أعظم على ربه الفرية » . ثم قرأت قوله تعالى : « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** » .

ويحدثنا الله تبارك وتعالى عن نبيه الجليل موسى حين سأله الرؤية ، فيقول :

« **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** » .

الرؤية مستحيلة إذن فى الدنيا .

قال الجنيد : لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى .

وقيل لذى النون وقد أشرف على الموت : ماذا تشتهى ؟ فقال : أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة .

ويقول الغزالى : كيف يتعجب المتعجبون من قولنا لم يحصل أهل الأرض والسماء من معرفة الله تعالى إلا على الأسماء والصفات . فإن قيل فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟ قلنا : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، فإنه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى . وذلك ما أشار إليه أحد الصوفية حيث قال « العجز عن درك الإدراك إدراك ، وهو الذى عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : « لا أحصى ثناء عليك أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك » .

والسبيل الحقيقى إلى معرفة الله عز وجل مسدود إلا فى حق الله عز وجل ، ولا يبقى إذن أمام العبد إلا طريق معرفة الأسماء وشهود الحق فاعلا فى

الكل .. وذلك طريق تتفاوت فيه المراتب .. يقول الغزالى .

« وكذلك يتفاوت الخلق فى معرفة الله عز وجل فبقدر ما ينكشف لهم من علم الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك والملكوت تزداد معرفتهم بالله تعالى وتقرب معرفتهم من معرفة الحقيقة » .

وما يجرى على المعرفة يجرى على الشهادة ، ببصر العين لا يرى العبد مولاه ، وببصيرة القلب يراه سبحانه .

قال أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى :

ـ وأخذنى شيخى من يدى وأجلسنى فى إيوان ، ومد يده فأخرج كتابا وأخذ يقرأ ، فتطلعت إلى معرفة هذا الكتاب فلمح الشيخ هذه الحركة فقال : يا أبا سعيد ، إن عددا لا يعلمه إلا الله من الأنبياء قد بعثوا ليعلموا الناس كلمة واحدة هى « الله » فمن سمعها بأذنه فقط لم تلبث أن تخرج من الأذن الأخرى ، أما من سمعها بروحه وطبعها فى نفسه وتذوقها حتى نفذت

إلى أعماق قلبه وفهم معناها وألهم حبها فقد انكشف له كل شيء .

وبالكشف تحصل المشاهدة .. ومن الصفاء تولد الشهادة .. والله سبحانه أجل من أن يراه خلقه ، إنما يرونه بعين الحب فى الدنيا بعد طريق المجاهدة ، فإذا انفضت الدنيا وجاء يوم الحق ، شهدوا ربهم مصداقا لقوله فى القرآن الكريم : **« وجوه يومئذ ناضرة .. إلى ربها ناظرة »** ..

هتف أبو يزيد البسطامى يوما فى وجده ، وما الجنة ؟ إنها لعبة الصبيان ونعيمهم .. أما أنا فأطلب وجه الله . هو جنتى ونعيمى وأنسى وغايتى ..

فى الحساسية

عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال :

- يا محمد .. أخبرنى عن الإسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » .

قال الرجل : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه .

ثم قال الرجل للنبى : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت ، فاخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. إلى آخر الحديث .

قال عمر : ثم انطلق الرجل فلبث النبى مليا ثم قال : « يا عمر أتدرى من السائل ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

يعتبر علماء الحديث هذا الحديث كالأم للسنة كما سميت الفاتحة أم القرآن لما تضمنته من جمعها معانى القرآن . وقديما كانت الأحاديث لا تكفى بأن تصل إلى أسماع المسلمين ثم تقبع هناك مجرد أحاديث ، إنما كانت تتحول إلى واقع حى وحساسية تصبغ وجودهم كله .

وعندما يحس المسلم أنه إن لم يكن يرى الله فإن الله تعالى يراه ، فإن استشعار هذه الرقابة الدائمة من رب العالمين على كل تصرف يأتيه المسلم ، هو الذى يخلق هذه الحساسية التى ميزت رجال الإسلام الأول .

مر ثعلبة بن عبد الرحمن الأنصارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بباب رجل من

الأنصار فبصر بامرأة الأنصارى وهى تغتسل فكرر النظر إليها ، ثم تذكر أن الله تعالى يراه وأحس بذنبه فخرج هائما على وجهه إلى جبال بين مكة والمدينة .

وبعث رسول الله عمر بن الخطاب وسلمان الفارسى فى طلبه ، فلقيهما راع من رعاة المدينة ، فقال له عمر : هل لك علم بشاب بين هذه الجبال ، فقال : لعلك تريد الهارب من جهنم . قال عمر : وما علمك بأنه هرب من جهنم ، قال : لأنه إذا كان نصف الليل خرج علينا من الشعب واضعا يديه على أم رأسه يبكى وينادى يا ليتك قبضت روحى بين الأرواح وجسدى بين الأجساد ولا تجردنى ليوم القضاء .

فلما أتى به إلى رسول الله قال : ما الذى غيبك عنى ؟ قال : ذنبى يا رسول الله . قال : أفلا أعلمك آية تمحو الذنوب والخطايا . قال : بلى يا رسول الله .

قال رسول الله : قل « **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** » قال : إن ذنبى أعظم من ذلك ، قال رسول الله : بل كلام الله أعظم . وأمره بالإنصراف إلى منزله . فانصرف ومرض ثلاثة أيام .

وجاء سلمان إلى النبى عليه الصلاة والسلام

وقال له : إن ثعلبة لمائت .. ويذهب الرسول إليه ، يأخذ رأسه فيضعه فى حجرة فيزيل رأسه عن حجر النبى . ويسأله رسول الله : لم أزلت رأسك عن حجرى ؟ فيجيب : لأنه ملآن من الذنوب . يسأله الرسول : ماذا تشتهى ؟ فيقول ثعلبة : مغفرة ربى .

ونزل جبريل على النبى قائلا له : يا أخى إن ربك يقرئك السلام ويقول : « لو لقينى عبدى بقراب الأرض خطايا ثم تاب لقيته بقرابها مغفرة » فأعلم الرسول ثعلبة بذلك .

بهذه الحساسية كان يمضى سلفنا الصالح ..

فى النجـاة

كان الجنيد يجلس مع رويم والهجويرى وابن عطاء .

قال الجنيد :

ـ مانجا من نجا إلا بصدق اللجا (يقصد اللجوء إلى الله) ثم قرأ قوله تعالى : « **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم** » .

وقال رويم :

ـ ما نجا من نجا إلا بصدق التقى .. قال الله تعالى : « **وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم** » .

وقال الهجويرى :

ـ ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء .. قال تعالى : « **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** » ..

وقال ابن عطاء :

ـ ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء .. قال الله تعالى : « **ألم يعلم بأن الله يرى** » .

وقال الجنيد :

ـ ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضا .. قال الله تعالى : « **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** » ... قال أيضا ما نجا من نجا إلا بمن سبق له من الله الاجتباء قال الله تعالى : « **واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** » ..

تختلط على الناس طرق النجاة .. وتمتلىء الطريق بالحيرة والضباب . ولعل ما غشى القلوب هو المسئول عن عدم جلاء البصر وانطفاء البصيرة .

والله تعالى رحيم بعباده ، وقد خلقهم للنعيم ، وهو يأخذهم بالرفق والحب ، ويسوق إليهم آيات النعم والفضل والرحمة ، وهو يدلهم على طريق النجاة .

وأحيانا يكون طريق النجاة هو طريق العذاب والألم والشدائد ، قال تعالى : « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** » ويتحدث الله تعالى عن الصابرين فيقول : « **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » .

ويرى الصوفية أن الإنسان فى قبضة الله ، وأنه يفر من الله إلى الله ... يهرب من حكم الله ولكن الخالق يراه أينما أختفى ويجده أينما ذهب ، فى بطن الحوت كان مثل النبى يونس ، أو فى جوف الصحراء مثل النبى موسى .

ومثلما يقدم الحق يد المنة والنعمة ، فكذلك يبتلى بالألم والشدة ، ويستحيل على الإنسان أن يقاوم هذه القدرة اللانهائية الرحيمة التى لا تفتأ من أجل خيره وصلاحه .

يروى النفروى ، وهو صوفى قديم ، أحد المواقف التى استمع فيها لخطاب القدرة الإلهية : « استمع إلى لسان من ألسنة سطوتى ، إذا تعرفت إلى عبد فدفعنى بالذنوب عدت بالرحمة كأنى ذو حاجة إليه . يفعل ذلك منى سبق كرمى فيما أنعمت ...... ويفعل ذلك من بخل نفسه بنفسه التى أملكها عليه ولا يملكها على . فإن دفعنى عدت إليه ولا أزال أعود ، وهو يرانى أكرم الأكرمين وأنا أعود إليه ، وأنا أراه أبخل الأبخلين » .

وترسم أبيات الصوفى المحب ابن الفارض

طريقه إلى النجاة فيربنا مقاماته التى تبدأ بالصوم وتنتهى بالنجاة .

وصمت نهارى رغبة فى مثوبة
وأحييت ليلى رهبة من عقوبة
وعمرت أوقاتـــى بورد لوارد
وصمت لسمت واعتكاف لحرمة
وبنت عن الأوطان هجران قاطع
مواصلة الإخوان واخترت عزلتى
وهذبت نفسى بالرياضة راجيا
إلى كشف ما حجب العوائد غطت
وجردت فى التجريد عزمى تزهدا
وآثرت فى نسكى استجابة دعوتى

فى المحبـــة

قال تعالى .. « والذين آمنوا أشد حبا لله » .. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبونى لحب الله » .

والحب لله تعالى ليس كلمة تقال باللسان بينما القلب غارق فى المعصية . روى الحسن البصرى أن ناسا قالوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله إنا نحب ربنا حبا شديدا .. فجعل الله تعالى لمحبته علامة وأنزل قوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .. وبذلك قيدت محبة الخالق عز وجل باتباع هديه والإيمان به وبرسوله .

يقول أبو سعيد الخراز : بلغنا أن موسى عليه السلام قال : يارب أوصنى :

قال عز وجل : « أوصيك بى »

قال : يارب كيف توصينى بك ؟

قال : لا يعرض لك أمران أحدهما لى والآخر لنفسك إلا آثرت محبتى على هواك .

ومن صدق محبة الله تعالى ، إيثار رضاه عز وجل على رضا المخلوقات والنفس ، وأن يبدأ العبد الصالح فى الأمور كلها بأمر الله قبل أمر نفسه ، وأن يتزين للحق بكل طاقته ، حذرا من أن يأتى عليه أمر يسقطه من عين من أحبه .

روى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال .. « يقول الله عز وجل ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها » .

ومن صدق محبة الله تعالى ، أن يحب العبد عند النعم وعند فقد النعم حبا صحيحا ، منعه الله أو أعطاه . ابتلاه أو عافاه .. وبذلك تسمو محبة الله تعالى عن أن تكون على قدر النعم فلا تنقص إذا نقصت النعم . يروى شهاب الدين السهروردى المقتول فى « مؤنس العشاق » أن العلم بالله تعالى يلد الحياء والتأثر والعاطفة وتقود العاطفة إلى الحب .. ويروى الغزالى حجة الإسلام أن أقسام الحب خمسة : حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه ، وحبه من أحسن إليه ، وحبه من كان محسنا فى

نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه ، وحبه ما هو جميل فى ذاته ، وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن ، وهذه الأسباب كلها لا تجتمع ، ولا يتصور اجتماعها إلا فى حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة الحقيقية إلا الله سبحانه وتعالى .

فى هديه صلى الله عليه وسـلم

من صدق محبة العبد لله تعالى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى هديه وزهده وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور كلها ، فإن الله عز وجل جعل محمدا صلى الله عليه وسلم علما ودليلا وحجة لنا ورحمة للعالمين ، قال تعالى : « **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » .

جاء فى زاد المعاد لابن قيم الجوزية عن هديه صلى الله عليه وسلم فى ملابسه وطعامه : « كان هديه فى اللباس أن يلبس ما يتيسر منه ، من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة . وكان هديه فى الطعام ، ألا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا ، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ، وما عاب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه ، ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه ، بل كان هديه أكل ما تيسر فإن أعوزه صبر .

وقال عن هديه صلى الله عليه وسلم فى نومه : كان ينام على فراشه تارة ، وعلى الحصير تارة ،

وعلى الارض تارة ، وعلى السرير تارة ، وتارة على كساء أسود .

وفى تعامله : كان صلى الله عليه وسلم هينا لينا ، وكان يحض على السماحة واليسر والرفق فى تناول الأمور ، بما فى ذلك أمور العقيدة ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . وقال : لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، وقال : يسروا ولا تعسروا ، وقال : رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى ، وقال : المؤمن يألف ويؤلف .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضى باليسر ، وذلك مصداق قوله تعالى : « ونيسرك لليسرى » فكان كما روت عنه عائشة رضى الله عنها : ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وكان إذا خلا فى بيته ألين الناس تبسما وضحكا ، وفى صحيح البخارى عن تواضعه « كانت الجارية تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت » .

وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها

صفحات من السماحة واليسر واللين والهوادة والتوفيق فى تناول الأمور ، ولقد جاء صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين رحمة ، جاء ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويضع أصر البشرية عنها ، قال تعالى : « **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** » .

فى التوحيـــد

الإيمان على درجات ، منه إيمان بالقول ، ومنه اعتقاد وتصديق بالقلب ، ومنه حال للمؤمن أو ملكة فيه أو صفة ممتزجة بكيانه ، تصدر عنها أفعاله صحيحة سليمة تتفق مع ما يطالب به الشرع .

وكذلك التوحيد ، منه قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، ومنه حال للروح ، أو تجربة روحية يشهد فيها الموحد وحدانية الحق وانفراده بالألوهية الكاملة .

قام رجل بين يدى ذى النون المصرى فقال : أخبرنى عن التوحيد . قال ذو النون : أن تعلم أن قدرة الله تعالي فى الأشياء بلا مزج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، أى من غير مباشرة آلة ، وكل صنع له علة ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السماوات العلا ولا فى الأرض السفلى مدبر غير الله ، وكل ماتصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك .

ويتحدث الصوفية فى التوحيد ، يقول القشيرى : أن الحق سبحانه وتعالى موجود قديم واحد قادر عليم قاهر ، له يدان هما صفتان يخلق بهما

ما يشاء سبحانه ، وله الوجه الجميل ، وصفات ذاته مختصه بذاته ، لا هى هو ولا هى أغيار له ، بل هى صفات أزلية ، ونعوت سرمدية .

ويقول الهجويرى : فإذا عرف العبد الحق وحده وأقر بأنه واحد ، ليس فى ذاته جمع ولا تفرقة ، ولا اثنينية ، وأنه واحد لا بالعدد الذى إذا أضيف إليه غيره صار اثنين ، وأنه ليس محدودا وليس له مكان ولا فى مكان ، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال التى وصفه بها المؤمنون الموحدون ، ووصف بها نفسه ، منزه عن صفات النقص التى وصفه بها الكافرون .. هو وصفاته قديمان .

هذه هى صفات الحق تبارك وتعالى كما قررها صوفيان كبيران هما القشيرى والهجويرى ، ورغم أنها ترد جميعا إلى أصل واحد أو صفة واحدة ، هى مخالفته تعالى للحوادث . مصداقا لقوله عز وجل : « ليس كمثله شىء » رغم ذلك فهناك من ينزه الله تعالى بأفضل مما فعل الصوفيان الكبيران .

ذلكم هو ابن حزم الأندلسى الفقيه الظاهرى ، يذهب ابن حزم إلى حد أبعد من ذلك فيقرر أن إطلاق

لفظ الصفات على الله تعالى محال لا يجوز ، لأن الله عز وجل لم ينص قط فى كلامه المنزل على لفظ الصفات ولا على لفظ الصفة ، كما أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينسب إلى الله يوما صفة أو صفات .

فإذا قيل أن كتاب الله يقول عنه سبحانه وتعالى أنه العليم الحكيم الرحيم القدير السميع البصير إلى آخر ذلك ، كان رد ابن حزم على ذلك ، أن كل هذه أسماء لله تعالى وليست صفات يحق لنا معها أن ننسب إليه عز وجل صفات العلم والحكمة والقدرة والسمع والبصر .

هى أسماء بنص القرآن ونص السنة والإجماع .. قال تعالى : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعلمون** » .

ويقول تعالى : « **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** » .

ولم يختلف أحد من أهل الإسلام فى أنها أسماء لله تعالى ، ولا يجوز القول بأنها صفات ، ولو وجد فى

المتأخرين من يقول ذلك لكان قولا باطلا ومخالفا لقوله تعالى ، وتبعا لذلك فإن ابن حزم لا يفهم من قولنا « قدير » و « عالم » عند الحديث عن الله تعالى إلا ما يفهم من قولنا « الله » فقط .

فإذا قلنا عن الله تعالى أنه بكل شيء عليم ، أو أنه يعلم الغيب ، فإننا ننسب إليه العلم ، ونقرر أنه لا يخفى عليه شيء ،ولكن هذا القول لا يعني مطلقا أن يكون لله تعالى علم هو غيره ، أو أن يكون علم الله شيء غير الله عز وجل .

فى هـدف الصوفيـة

من كلمات الجنيد فى التوحيد قوله :

(أن يصل العبد إلى حال يكون فيها شبحا قائما بين يدى الله عز وجل ، ليس بينهما ثالث ، تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته . فى لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له ، وعن استجابته لهم بحقائق وجوده ووحدانيته فى حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته لقيام الحق له فيما أراده منه . والعلم فى ذلك أنه رجع آخر العبد إلى أوله بأن يكون كما كان إذ كان قبل أن يكون ، والدليل على ذلك قول الله عز وجل : « **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى** » وهل أجابت إلا الأرواح الطاهرة العذبة المقدسة بإقامة القدرة النافذة والمشيئة التامة الأركان . وهذا غاية توحيد الموحد للواحد .. يذهب هو) .

ما الذى تعنيه كلمات الجنيد البعيدة العمق . سنلاحظ فى البداية أن كلمات الجنيد تشرب من أحد أعماق القرآن الصافية ، من آية الميثاق التى تشير إلى

أن الله تعالى خاطب أرواح بنى آدم فى الأزل حين كانوا فى عالم الذر وأشهدهم علي أنفسهم بسؤاله إياهم .

ألست بربكم ..

فشهدوا له بالوحدانية بقولهم : بلى ..

من هذه الآية الكريمة يبنى الجنيد نظريته فى التوحيد ، وهى نظرية يرى الدكتور أبو العلا عفيفى أن صوفيا لم يسبق إليها .

يرى الجنيد أن النفوس البشرية كان لها وجود سابق على وجودها المتصل بالأبدان ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم . وفى هذا الوقت الذى سبق اتصال هذه النفوس بالأبدان ، ولصفاء هذه النفوس وقربها من الله عز وجل شهدت له بالوحدانية وأقرت بالتوحيد ولزمتها الحجة . ثم نزلت هذه النفوس إلى الدنيا .. إلى عالم الأبدان والكثافة والشهوات والظلمات والاختبار والإبتلاء .. ودخلت حياتها معان جديدة ، ورانت على قلبها ستائر المعصية ، وبعد الطريق بينها وبين الله عز وجل .

ولكى تصل النفوس إلى توحيدها القديم ، يرى الجنيد أنه لابد لها من العودة إلى الحال التى كانت عليها فى عالم الذر ، أو قرابة ما تستطيع منه ، وذلك ما عناه بقوله « والعلم فى ذلك أنه رجع اخر العبد إلى أوله . بأن يكون كما كان إذ كان قبل أن يكون » يعنى بذلك أن يكون العبد كما كان إذ كان فى عالم الذر والأرواح قبل أن يكون فى عالم الأبدان . العودة إلى الصفاء الأول هو هدف الصوفية .

وإلى هذا المعنى يشير ابن الفارض بعد الجنيد بزمن ، إذ يتحدث عن حب النفس لله وهى لم تزل فى عالم الذر قبل وجودها فى النشأة الإنسانية فيقول :

وهمت بها فى عالم الذر حيث لا
ظهور وكانت نشوتى قبل نشأتى
منحت ولاها يوم لا يوم قبل أن
بدت عند أخذ العهد فى أوليتى

وإذا كانت العودة إلى نفس الصفاء والطهارة اللتين كان عليهما الإنسان حين أخذ عليه عهد التوحيد قبل خلق بدنه ، إذا كانت هذه العودة مستحيلة ما دامت هناك صلة بين الجسم والروح ، فإن الطريق لتحطيم استحالتها هو

التحرر من قيود البدن وعلاقاته ، وذلك ممكن بطريق الصوفية الذى يبدأ بالتوبة وينتهى بالفناء فى الله . والطريق طويل و لكل واحد حظ ما·مشاه فيه من خطوات .

فإذا وصل العبد إلى التسليم المطلق .. وأصبح شبحا قائما بين يدى الله ، وصل إلى مقام المعرفة الصوفية الذى تنكشف فيه الأشياء بنور يقذفه الله تعالى فى القلب كما عبر حجة الإسلام الغزالى .

فى الحيـاء

لا يبلغ المسلم درجة الإسلام إلا مع الحياء .. قال الله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحياء من الإيمان » ..

قال النبى عليه الصلاة والسلام يوما لأصحابه : « استحيوا من الله حق الحياء » .

قالوا : إنا نستحى يانبى الله والحمد لله .

قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء .

قال الحكماء : أحيوا الحيـاء بمجـالسة من يستحيون . يقصدون بذكر الله . وقال ابن عطاء : العلم الأكبر هو الهيبة والحياء ، فاذا ذهبت الهيبة والحياء ،لم يبق فيه خير ، أى لم يبق فى القلب خير .

قال ذو النون المصرى : الحياء وجود الهيبة فى

القلب ، مع وحشة ما سبق منك إلى ربك سبحانه وتعالى ، والحب ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يعلق ، وقال السرى : إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع حلا وإلا رحلا .

قال الهجويرى : تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين ، حتى رق الدين ، ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء ، حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

يقول أبو القاسم القشيرى فى الرسالة القشيرية في تفسير قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » البرهان أنها ألقت ثوبا على وجه صنم فى زاوية البيت .. فقال يوسف عليه السلام .. ماذا تفعلين ؟ .. قالت استحى منه ؟ قال يوسف عليه السلام أنا أولى منك أن استحى من الله تعالى .

قال الدارانى : إن الله تعالى يقول لعبده : « ياعبدى إنك ما استحيت منى أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ، ومحوت من أم الكتاب

زلاتك ، ولا أناقشك فى الحساب يوم القيامة » .

وشوهد رجل يصلى خارج المسجد ، فقيل له لم لا تدخل المسجد فتصلى فيه فقال : استحى منه تعالى أن ادخل بيته وقد عصيته .

والحياء أنواع ، حياء الجناية كآدم عليه السلام حين أكل من الشجرة واكتشف أنه عار وناداه الله فأسرع يجرى فقيل له : أفرارا مني ؟ قال : بل حياء منك . وحياء التقصير كالملائكة يقولون له : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، وحياء الحب كموسى عليه السلام حين ناجي ربه قائلا إني لتعرض لي الحاجة من الدنيا فاستحى أن أسألك يارب . فقال الله عز وجل : سلني حتى عن ملح عجنتك وعلف شاتك ..

ومن أنواع الحياء العظمى حياء الإنعام وهو حياء الرب سبحانه وتعالى إذ يدفع إلى العبد كتابا مختوما بعد ما يعبر الصراط ، وإذا فيه : فعلت وقد استحيت أن أظهره عليك فاذهب فإني قد غفرت لك .

قال الفضيل بن عياض : علامات الشقاء خمس : قسوة القلب .. وجمود العين .. وقلة الحياء .. والرغبة

فى الدنيا .. وطول الأمل .

وقالت كتب الصوفية وهم يتكلمون بلسان الحال عن الله عز وجل : ما أنصفنى عبدى يدعونى فاستحى أن أرده ، ويعصانى فلا يستحى منى .

وقال يحيى بن معاذ : سبحان من يذنب العبد فيستحى هو منه .

وقيل فى تعريف الحياء أنه انقباض القلب لتعظيم الهيبة .

فى الذكـــر

روى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه من الأحاديث القدسية قول الحق : « لا يذكرنى عبد فى نفسه إلا ذكرته فى نفسى .. ولا يذكرنى فى ملأ إلا ذكرته فى الملأ الأعلى » .

ويحث الله سبحانه وتعالى على الذكر فى قوله **« واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين »** .

ويأمر الله تبارك وتعالى بالذكر فيقول : **« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا »** .

ويصف الله تبارك وتعالى أصحاب العقـــول المستنيرة ، بأنهم لا يكفون عن ذكر الله عز وجل سواء كانوا قياما أم قعدوا على جنوبهم .. يقول عز وجل :

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهـم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار .. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى

للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » .

والذكر على نوعين ، ذكر اللسان وذكر القلب ، فذكر اللسان يوصل إلى ذكر القلب ، ومتى ذكر العبد بقلبه ولسانه كان على طريق النجاة .

قال ذو النون المصرى : من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسى فى جنب الذكر كل شى وحفظ الله تعالى عليه كل شيء ، وكان له عوضا عن كل شيء .

سئل أبو عثمان : نحن نذكر الله تعالى ولا نجد فى قلوبنا حلاوة ، قال : احمدوا الله أن سخر جارحة من جوارحكم لطاعته .

وفى الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها » . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، اغدوا وروحوا واذكروا ، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده . فإن الله سبحانه وتعالى جعل العبد منه حيث هو من نفسه .

ومن أعظم خصائص الذكر أنه غير مؤقت ، وكل الأوقات يصح فيها الذكر ، قال الحسن البصرى : تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء فى الصلاة وفى الذكر وقراءة القرآن ، فإن وجدتم فاطمئنوا وإلا فاعلموا أن الباب مغلق .

وقال سهيل بن عبد الله : ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادى : ياعبدى ما أنصفتنى ، أذكرك وتنسانى ، وأدعوك إلى وتذهب إلى غيرى ، واذهب عنك البلايا وأنت عاكف فى الخطايا ، يا ابن آدم ما تقول غدا إذا جئتنى .

قال الكتانى : « لولا أن ذكره فرض على ما ذكرته إجلالاً له .. مثلى يذكره ولم يغسل فمه بتوبة مقبولة .

وقال الشبلى يوما ..

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة

وأيسر مافى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى

وهام على القلب بالخفقان

فلما رآنى الوجد أنك حاضرى

شهدتك موجـودا بكل مكـــان

فخاطبت موجودا بغير تكلـــم

ولاحظت معلومـا بغيـر عيــان

فى الشـكر

قرن الله تعالى الشكر بالذكر فى كتابه مع قوله تعالى : ولذكر الله أكبر ..

قال تعالى : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » قال تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . وقال تعالى : « وسنجزى الشاكرين » .

أخبر الله عز وجل عن ابليس اللعين أنه قال : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » . قال العلماء هو طريق الشكر .. ولعلو مرتبة الشكر طعن إبليس فى الخلق فقال : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

ولخطورة الشكر ولكونه مقاما عاليا لا يبلغه معظم الخلق قال تعالى : « وقليل من عبادى الشكور » .

والشكر خلق من أخلاق الربوبية ، قال تعالى عن نفسه : « والله شكور حليم » .

وقال عز وجل : « فإن الله شاكر عليم » وتلقى هذه الكلمات ظلالا ندية ، إذ تقرر شكر الرب للعبيد ومن ثم توحى بالأدب الواجب على العبد مع الرب .. فإذا كان

الرب يشكر لعبيده الخير الذى يفعلونه مع أن الخير فى نهاية الأمر رحمة ونعمة من الرب ذاته ، فماذا يصنع العبد ليوفى الرب حقه من الشكر والحمد على نعمتين هما : الخير أولا ، وشكر الحق تبارك وتعالى عليه ثانيا .

جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الخير وآخر كلامهم ، فأخبر عمن يدخل الجنة أنهم يقولون : « **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده إن ربنا لغفور شكور** » .. وقال تعالى : « **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** » .

قالت عائشة رضى الله عنها : أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فدخل معى فى فراشى حتى مس جلدى جلده ثم قال : يا ابنة أبى بكر ، ذرينى أتعبد لربى . قلت : إنى أحب قربك لكنى أوثر هواك . فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره . ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فأذن لصلاة الفجر فقلت : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » .

ولا يكون الشكر إلا للمنعم ، ولا منعم سوى الله

تعالى . ويرى العارف بالله الإمام الغزالى أن حركة النفس نحو الشكر نعمة .. فكيف نشكر نعمة بنعمة .. وذلك يعنى أن الشكر محال فى حق الله تعالى .. ولقد خطر هذا الخاطر لداود ولموسى عليهما السلام ، فقال موسى : كيف أشكرك يارب وشكرى لك نعمة أخرى منك ، توجب على الشكر لك ، فأوحى الله إليه : إذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا .

فى سنن ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها ، وصعدا إلى الله تعالى فقالا : يا ربنا إن عبدا من عبادك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها .. قال الله وهو أعلم بما قال عبده : ما الذى قال عبدى . قالا : إنه قال : « لك الحمد يارب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك » . فقال الله تعالى لهما : أكتباها كما قالها عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها ..

يارب ..

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم

سلطانك .

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ويليق بكرامة أسمائك الحسنى ...

ربنا لا نحصي ثناء عليك ..

أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك .

فى الصـــدق

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

والصدق عماد الأمر وبه تمامه ، وفيه نظامه ، وهو يتلو درجة النبوة ، قال تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

يقول القشيرى : أقل الصدق استواء السر والعلانية ، والصادق من صدق فى أقواله ، والصديق من صدق فى جميع أقواله وأفعاله وأمواله .

وقال أحمد بن خضرويه : من أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق ، فإن الله تعالى يقول : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » .. قال الدارانى : الصادق أن

يصف لسانه ما فى قلبه .

وتختلف نظرة الصوفية للصدق ، قيل : الصدق هو القول الحق فى مواطن التهلكة ، وقيل : هو موافقة السر للنطق ، وقيل : منع الحرام من الشوق ، وقيل : الوفاء لله سبحانه بالعمل .

قال إبراهيم الخواص فى تعريفه للصدق : الصادق لا تراه إلا فى فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه ، وقال : حقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لا ينجيك منه إلا الكذب ، وسئل الحارث المحاسبى عن علامة الصدق فقال : الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كل قدر له فى قلوب الخلق ، من أجل صلاح قلبه ، لا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله ، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين .

قال تعالى :

« فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » وقال عز وجل « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد » وقال سبحانه تعالى .. « ليسأل الصادقين عن صدقهم » .

والصدق هو أول الطريق إلى الله وهو منتهاه ، ولو صدق العبد ربه فى قوله وفعله وحركاته وسكناته وقيامه ، لكتب عند الله من الصادقين ، والصدق إسم لمعان كثيرة كما يقول أبو سعيد الخراز ، وأوله هو صدق العبد فى الإنابة إلى الله بالتوبة النصوح ، وثانيه الصدق فى معرفة النفس والقيام عليها . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ومن معانى الصدق معرفة عدو البشر إبليس ، قال تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . ومن معانى الصدق : الصدق فى الورع والتقوى .. والصدق فى الورع هو الخروج من كل شبهة ، والترك لكل ما اشتبه عليك من الأمور .

ومن معانى الصدق ، الصدق فى الزهد .. أن ينصرف المرء عن الدنيا رغم القدرة عليها .. قال تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » . ويتفق الحكماء على أن الدنيا هى النفس وما هويت .

ومن استعلى على رغبات نفسه ، وأطاع ربه كتب عند الله من الصادقين .

فى العبـودية

قال الله عز وجل : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ..

قال أبو على الدقاق : العبودية أتم من العبادة تجىء العبادة أولا ثم العبودية ثم العبودة .. العبادة للعوام المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخواص الخواص .

العبادة عند الصوفية لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين ، والعبودة لمن له حق اليقين ، العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات ، فمن لم يدخر عند الله نفسه فهو صاحب عبادة ، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية ، ومن لم يبخل عليه بروحه ، فهو صاحب عبودة .

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى العابدين سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى

يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته إمرأة ذات مال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

سئل محمد بن خفيف : متى تصح العبودية ؟ فقال : إذا طرح همه كله على مولاه . وقال سهل بن عبد الله لا يصح التعبد لأحد حتى يضيع جزعه من أربعة أشياء من الجوع والعرى والفقر والذل ، وقيل : من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير ، وقال ذو النون المصرى : العبودية أن تكون أنت عبده فى كل حال ، كما أنه ربك فى كل حال .

وقال الهجويرى : عبيد النعم كثير عددهم .. وعبيد المنعم عزيز وجودهم . وقال أبو على الدقاق .. أنت عبد من أنت فى رقه وأسره ، فإن كنت فى أسر دنياك فأنت عبد دنياك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار .. تعس عبد الخميصة » .

قال الصوفية : العبودة شهود الربوبية .. وقال

النصراباذى : قيمة العابد بمعبوده كما أن شرف العارف بمعروفه ، وقال الفارس عن ابن عطاء : العبودية فى أربع خصال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

لا يوجد فى الدنيا أشرف من وصف العبودية ، ولا إسم أتم للمؤمنين من الإسم له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه وتعالى فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج وكانت أشرف أوقاته فى الدنيا : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** » وقال تعالى : « **فأوحى إلى عبده ما أوحى** » فلو كان إسم أجل وأعظم من العبودية لسماه به .

قال الجوزجانى : « الرضا دار العبودية والصبر بابه ، والتفويض بيته ، وكما أن الربوبية نعت للحق سبحانه لا يزول عنه ، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه ما دام قائما بالحق .

فى السفر

كان أبو على الدقاق يجلس حين جاءه مريد يقول له : سافرت إليك من مكان بعيد وقطعت مسافة طويلة والمقصود لقاؤك ، قال الدقاق : كان يكفيك خطوة واحدة لو سافرت عن نفسك .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استوى على البعير خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال : **« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون »** .. اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى .

والسفر نوعان : سفر مادى بالجسم وذلك هو السياحة .. وسفر آخر بالقلب والعقل وذلك هو انتقال المريد من مقام إلى مقام ومن تجل إلى تجل .

ويختلف الصوفية فى أحوال الإقامة والسفر .. فمنهم من يؤثر الإقامة على السفر ، فلا يسافر إلا لغرض كالغزالى والجنيد وأبى يزيد البسطامى وسهل بن عبد الله . ومنهم من يؤثر السفر مثل أبى عبد الله المغربى وإبراهيم بن أدهم . سئل أحد شيوخ

الصوفية : هل سافرت ايها الشيخ ؟ قال : سفر الارض أم سفر السماء ، سفر الأرض لا ، وسفر السماء نعم .

والمسافر إلى الله تجب عليه حقوق كثيرة ، أول ما يجب عليه طلب العلم الذى تقوم به طهارته وسلامته وحياته وتقواه ، وهذا هو علم الفقه .

أول شيء فى السفر إلىٰ الله هو التمسك بالشريعة يقول الصوفية : أصل رياضتنا ومجاهداتنا وجميع أعمالنا التى أعطتنا هذه العلوم والآثار الطاهرة ، إنما جاء من عملنا بالكتاب والسنة .

بعد ذلك يأخذ القلب فى سفره ، فى التوجه إلى الله . والسفر عند ابن عربى ليس شيئا خارجيا عن القلب ، إنما هو مجرد معاملات وأذواق ذاتية فيه ، وأول خطوة فى السفر هى محاسبة النفس ، يقول ابن عربى لمريده :

ـ ومما لابد لك منه محاسبة نفسك ، ومراعاة خواطرك مع الأوقات ، واستشعار الحياء من الله تعالى بقلبك ، فإنك إذا استحييت من الله منعك قلبك أن يخطر فيه خاطر لغير الله ، أو يتحرك بحركة لا

يرتضيها الله تعالى ، ولقد كان لنا شيخ يقيد حركاته فى كتابه بالنهار ، فإذا أمسى جعل صحيفته بين يديه وحاسب نفسه على ما فيها ، وزدت أنا عن شيخى بتقييد خواطرى .

ومن آداب السفر مراعاة الأوقات وحكمها ، بأن ينظر المسافر فى الوقت الذى هو فيه ، وينظر أى شىء أمره المشرع أن يفعله فى هذا الوقت فيفعله فيه . ومن آداب المسافر إلى الله حسن الظن بالناس ، وسلامة الصدر ، والدعاء للمسلمين ، وخدمة الفقراء ، وإرشاد الناس ، والإحسان إليهم ، وتقوى الله فى السر والعلانية .

قال الله تعالى : **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »** .

ويقول الصوفية : انظر إلى نفسك بعد الجهاد تتضح لك السبل .

ويقول ابن عربى إن السفر قطعة من العذاب .. والمسافر ينتقل من عذاب إلى عذاب فلا راحة .. غير أنه عذاب تعقبه الراحة .

فى الأدب

قال تعالى مخاطبا خاتم رسله : « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى » . وحقيقة الأدب اجتماع جميع خصال الخير ، وحقيقة العبادة أن تعامل الله تعالى بالأدب سرا وعلانية .

قال الحسن البصرى : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب طاعة الشريعة ، فمن لا شريعة له فلا إيمان له ولا توحيد ، والشريعة توجب الأدب . فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

وهذه درجة الأدب .

ويراعى الصوفية حسن الأدب مع الحق تبارك وتعالى .. قال الرازى : سمعت الهجويرى يقول : منذ عشرين سنة ما مددت رجلى وقت جلوسى فى الخلوة .. فإن حسن الأدب مع الله تعالى أولى .

سئل ابن سيرين : أى الآداب أقرب إلى الله تعالى ؟ قال : معرفة ربوبيته ، وعمل بطاعته ، وحمد لله على السراء ، وصبر على الضراء .

قال يحيى بن معاذ : من تأدب بأدب الله تعالى ، صار من أهل محبة الله تعالى ، والقوم الصالحون هم الذين استعانوا بالله على أمر الله ، وصبروا على آداب الله . وقال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم .

وقال الصوفية : ثلاث خصال ليس معها غربة : مجانبة أهل الريب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى . وأنشدو فى معناه .

يزين الغريب إذا ما اغتـــرب
ثلاث فمنهـــــن حسن الأدب
وثانيــــه حسن أخلاقـــــه
وثالثـــه اجتنـــاب الـــريب

قال سهل بن عبد الله : من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بإخلاص .. وقيل : كمال الأدب لا يصفو إلا للأنبياء والصديقين ، وعرف ابن المبارك الأدب بقوله :

هو معرفة النفس .

ويصل الصوفية فى أدبهم مع الحق تبارك وتعالى إلى مستويات رائعة من الحساسية والإخلاص .. يقول الشبلى : الانبساط بالقول مع الحق سبحانه فيه ترك للأدب . وقال ذو النون المصرى : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معرفته تؤدب قلبه .

وأكثر الناس أدبا فى الوجود هم الأنبياء .. يحكى الحق سبحانه وتعالى عن دعاء أيوب له : « **وأيوب إذ نادى ربه إنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين** » .. لم يقل أيوب ارحمنى لأنه حفظ آداب الخطاب ، والمفروض أن الله يرحمه .

وكذلك عيسى عليه السلام حين قال : « **إن تعذبهم فإنهم عبادك** » . وقال ردا على سؤال الحق له يوم القيامة هل قال للناس أن يعبدوه هو ومريم أمه ، قال عيسى : « **إن كنت قلته فقد علمته** » .. لم يقل : « لم أقل رعاية لآداب الحضرة » .

قال بعض الصوفية : إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب المعروفة ، واستحقت شروط أعظم

منها .. وهذا يعنى أنه إذا صحت المحبة وجب على المحب ملازمة أدب أرقى .

وقال ذو النون المصرى : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء .

فى الحريــة

قال الله عز وجل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

قال المفسرون : إنما آثروا على أنفسهم لتحررهم من هوى الدنيا وما يشد إليها .

والحرية فى نظر الصوفية أن لا يكون العبد تحت رق شيء من المخلوقات أو أعراض الدنيا ، قال حارثة رضى الله عنه : « عزفت نفسى عن الدنيا .. فاستوى عندى حجرها وذهبها » .

ومقام الحرية عزيز ، ومن كان فى الدنيا حرا كان فى الآخرة حرا ، وحقيقة الحرية هى كمال العبودية ، فإذا صدقت لله تعالى عبودية المرء ، خلصت من رق الأغيار حريته .

والحرية أن يخرج المرء من رق المخلوقات إلى عبودية الله وحده ، يقول المسلم وهو يفتتح صلاته : « الله أكبر » .

يعنى ذلك أن الله أكبر من الدنيا والجاه والمال

والولد والسلطان والترف والنعيم ، الله أكبر من هذا كله ، وبسبب الله تعالى نحن نسمو على هذا كله ، لا نريد غير الحرية الحقيقية ، لا نريد غير الله ، غير كمال العبودية لله .

يربى الإسلام أتباعه على الحرية بمستواها النفسى والمادى ، لا يشعر المسلم بعبوديته إلا الله ، وتمنحه هذه العبودية استعلاء على كل مغريات الأرض كما تمنحه القوة إزاء كل قوى الأرض .

والحر لا يخشى أن يقول كلمة حق فى وجه سلطان جائر ، الحر لا يخشى أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، الحر لا يداهن ولا ينافق ولا يخاف سطوة الطغيان .

وأعظم الناس حرية هم الأنبياء ، لأنهم أكثر الناس فهما لعبوديتهم لله ، يقف إبراهيم عليه السلام يجادل الطاغية ويحدثه أن الله يحيى ويميت ، فيزعم الطاغية أنه يحيى ويميت ، فقال له إبراهيم عليه السلام : « **فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر** » .

يعلم إبراهيم عليه السلام أنه يقف أمام طاغية يستطيع أن يصدر أمره بقتله ، يعرف أنه يقف أمام رجل يدعى الألوهية ، رجل يملك كل سلطان الأرض والقوة ، ولكنه لا يخاف هذا الرجل ، وإنما يجابهه بحقيقة أنه مجرد من كل أسباب القوة ..

لا يقع ذلك إلا لأن النبى كإنسان حر .. لا يخاف ، وهو يعرف من موقف الحرية الذى يقفه أن القوة كلها بيد خالقه .. وأن كل ما يجمعه الطاغية حوله من القوة هى انتفاخة باطلة لا تصمد حتى للكلام .. فضلا عن الفعل ..

قال الحسين بن منصور : من أراد الحرية فليصل إلى العبودية .. وكلما ارتقى المرء فى مراتب العبودية زادت حريته .. إن قلقه وخوفه يذوبان .. لا يبقى غير إحساسه بأنه حر ..

ولا شيء يصنع شجاعة الرجال كالإحساس بالحرية .. إن جبهة تذل لله فى صلاة حقيقية .. هى جبهة لا تطأطىء لأحد ، ولا تذل لأحد ، والذين تنحنى أرواحهم حقيقة لله لا تعرف نفوسهم كيف تنحنى للبشر .. قال بشر الحافى : من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية .. فليطهر السريرة بينه وبين الله

تعالى ..

أنشد منصور الفقيه باكيا على ندرة الأحرار :

ما بقـــــــى فى الإنس حر
لا ولا فى الجــــــــــن حر
قد مضى حر الفريقيــــــــن
فحلـــــو العــــــيش مر

قال الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيرى : « واعلم أن معظم الحرية فى خدمة الفقراء » . هذه العبارة المضيئة تضع الإطار الإجتماعى للحرية وتبين هدفها النهائى .

فى الإرادة

قال الله عز وجل : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه** » وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله فقيل له كيف يستعمله يا رسول الله ، قال : يوفقه لعمل قبل الموت » .

والإرادة بدء طريق السالكين .. وهى اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى .. وإنما سميت هذه الصفة إرادة لأن الإرادة مقدمة كل أمر ، فما لم يرد العبد شيئا لا يفعله ، والمريد هو من له إرادة ، كما أن العالم من له علم ..

غير أن الصوفية ينظرون إلى الإرادة نظرة أخرى .. المريد فى عرف الصوفية من لا إرادة له ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريدا .

وتكلم كثير من أشياخهم عن الإرادة . قالوا :

الإرداة ترك ما عليه العادة .. وعادة الناس الإقامة فى أماكن الغفلة والركون إلى إتباع الشهوة .. والإخلاد إلى ما دعت إليه النفس الأمارة بالسوء .

والمريد منسلخ عن هذا الحال ، هو خارج عن العادة .. وترك العادة إمارة الإرادة .. وحقيقة الإرادة نهوض القلب في طلب الحق سبحانه ،

وقال الدقاق : الإرادة لوعة فى الفؤاد ، لدغة فى القلب .. غرام فى الضمير ، انزعاج فى الباطن ، نيران تتأجج فى النفوس . ومن صفات المريدين التحبب إلى الله بالنوافل .. والإخلاص فى نصيحة العامة .. والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام .

قال الرقى : سمعت الدقاق يقول : نهاية الإرادة أن تشير إلى الله تعالى فتجده مع الإشارة .. فقلت : فأى شيء يستوعب الإرادة ؟ .. فقال الدقاق : أن تجد الله تعالى بلا إشارة ..

قال الواسطى : أول مقام المريد إرادة الحق سبحانه بإسقاط إرادته . وسئل الجنيد : ما للمريدين يتعلقون بالحكايات ، قال : الحكايات جند من جنود الله تعالى .. يقوى بها قلوب المريدين .. قيل له ألك شاهد ؟ قال : نعم .. قوله عز وجل : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » .

ويدق التفريق بين المريد والمراد عند الصوفية .. وكل مريد على الحقيقة مراده الله تعالى ، غير أن القوم يفرقون بين المريد والمراد رغم ذلك ..

المريد عندهم هو المبتدىء والمراد هو المنتهى .

والمريد هو الذى يلقى مراده بعد التعب ومقاساة المشاق .

والمراد هو الذى يلقى ما يريد من غير مشقة .

أى أن المريد متحمل ، والمراد محمول .

قال الصوفية .. كان موسى عليه السلام مريدا لأنه قال : « رب اشرح لى صدرى » . وكان محمد صلى الله عليه وسلم مرادا لأن الله تعالى قال له : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » .

في الرضـــا

قال الله عز وجل : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

وروى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يطلع على أهل الجنة فيقول لهم : يا أهل الجنة سلونى .. فيقولون : نسألك الرضا عنا .. فيقول سبحانه : رضاى قد أحلكم دارى وأنالكم كرامتى ..

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا .. هل هو من الأحوال أو من المقامات .. قال أهل خراسان : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، وهو مقام يتوصل العبد إليه عن طريق الإكتساب . أما العراقيون فقالوا : إن الرضا من جملة الأحوال ، وليس كسبا للعبد بل هو فيض يحل بالقلب كسائر الأحوال ..

وتكلم الصوفية فى الرضا .. قالوا : إن الراضى بالله هو الذى لا يعترض على تقديره . وقال أبو على الدقاق : ليس الرضا أن تحس بالبلادة .. إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضا .. وقال الشيخ : ..

الرضا باب الله الأعظم .. وجنة الدنيا .. واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه .. إلا بعد أن يرضى عنه الحق سبحانه لقوله تعالى .. « رضى الله عنهم ورضوا عنه .. » .

قال تلميذ لأستاذه .. هل يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟

قال : لا .. كيف يعلم ذلك ورضاه غيب .. قال التلميذ : بل يعلم ذلك ..

قال : كيف .. قال : إذا وجدت قلبى راضيا عن الله علمت أنه راض عنى .

قال الأستاذ : أحسنت ياغلام ..

قال موسى عليه السلام .. إلهى .. دلنى على عمل إذا عملته رضيت به نفسى .. قال الحق : إنك لا تطيق ذلك .. فخر موسى عليه السلام ساجدا متضرعا .. فأوحى الله تعالى إليه : ياابن عمران .. إن رضاى فى رضاك بقضائى ..

قال الدارانى : إذا سلا العبد عن الشهوات .. فهو راض .. وقال النصراباذى : من أارد أن يبلغ

محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه ... وقال محمد ابن خفيف : الرضا على قسمين ، رضا به ، ورضا عنه ، فالرضا به أن يرضاه مدبرا ، والرضا عنه فيما يقضى .

قال رويم .. الرضا أن لو جعل الله جهنم على يمينه ماسأله أن يحولها إلى يساره . وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يكون فيه إلا فرح أو سرور . وقال الواسطى : استعمل الرضا جهدك .. ولا تدع الرضا يستعملك .. فتكون محجوبا بلذاته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع .

سئلت رابعة العدوية متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة .. وقال الشبلى بين يدى الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله .. فقال له الجنيد .. قولك هذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء .

فسكت الشبلى .

قال أبو سليمان : طرف من الرضا .. أن ترضى ولو أدخلت النار .. وقال الدمشقى : الرضا رفع الإختيار ، قال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلى

قديم اختيار الله تعالى للعبد .. وقال المحاسبى : الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام .

فى الهـوى

لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم رجل حسن الصوت ، فاستأذنوه أن يقول بين يديه فبدأ يقول :

صغيـــــر هواك عذبنــــــى
فكيـــــف بـه إذا احتنكـــــا
وأنت جمـــــعت من قلبـــــى
هوى قد كان مشتركـــــــا .
أمـــا ترثـــــى لمكتـــئب
إذا ضحك الخلـــى بكـــــى

قال ذو النون .. هذا هو الهوى ..

ويروى لذى النون فى الحب الإلهى :

أموت وما ماتت إليك صبابتى
ولا قضيت من صدق حبك أوطارى
مناى المنى كل المنى أنت لى منى
وأنت الغنى كل الغنى عند اقتارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى ...
وموضع آمالى ومكنون أضمارى

تحـــمل قلبـــى فيك ما لا أبثـــه

وإن طال سقمى فيك أو طال أضرارى

ويقول ذو النون فى أحد أدعيته :

« من لم يشبعه الولوع باسمك .. ولم يرده من ظمئه ورود غدران ذكرك ، ولم ينسه جميع العلوم رضاه عنك ، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك .. كانت حياته ميتة .. وميتته حسرة ، وسروره غصة ، وأنسه وحشة .. إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته .. ولا حاجزا إلا رفعته ، ولا بابا إلا فتحته . يامن أسأله إينـــاسا به ، وإيحـــاشا من خلقـــه .. ارحـــم غربتى .. » .

يقوم الهوى الصوفى على الوحشة من الناس .. وحب خالقهم وحده .. يرى الهوى الصوفى فى كل مظهر من مظاهر الطبيعية آية من آيات الله .. لا يرى شيئا إلا رأى الله خالقا فاعلا ..

ويقوم هوى الصوفى للخالق على رغبة المخلوق الفانى فى الكل الخالد .. ومحبة الله حال لا نستطيع لها شرحا ولا تفسيرا ولا تعبيرا .. هى حال تجل عن الوصف وتلطف عن العبارة كما يقول

القشيرى .

ولكنها تحمل العبد على تعظيم الله وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والشوق إليه وعدم القرار من دونه ووجود الاستئناس بدوام ذكره .

قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله » .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان . فقال : أن يكون الله ورسوله أحب إليك من سواهما ..

يصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه الغفور الودود ، وإنه قريب من عبده إذا دعاه ، وإنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .. وكلها آيات تفيض رحمة بالعباد وعطفا عليهم ..

قال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

قال تعالى : « إنه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » .

فى الاســتغفار

يقول الإمام الغزالى فيما يرويه عن شيوخه .. العبد بين ذنب ونعمة ، ولا يصلحهما إلا الاستغفار والحمد .

والإستغفار من عناصر التوبة .. هو ركن من أركانها .. قال تعالى : « **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** » .

والإستغفار ذكر الله بعد التفكير فى الخطيئة .. يبدأ أمره بتفكير العبد فى خطيئته ، يضيع إحساسه بأنها كسب .. (**بلى من كسب سيئة**) بعد أن تضيع حلاوة الذنوب فى قلبه تبدأ مرارة الندم .

ويسير فى حدائق الندم .. يقطف من ثمارها المريرة ما شاء الله له أن يفعل .. وبعدها يتجه إلى الله يسأله المغفرة .. بعدها يستغفر الله .. قال تعالى : « **ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيما** » .

وترتبط المغفرة بالغنى .. يعد الله المستغفرين أن يزيد فى أموالهم وأولادهم وأن يقدم إليهم أسباب القوة قال تعالى : « **استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** » .

هذه الصلة بين الاستغفار والغنى هى صلة منطقية .. إن إنسانا يمضى فى كسب السيئات هو إنسان يشغل نفسه بشىء غير أسباب القوة .. تنسف السيئات وقت المرء ، وتشعل النار فى كفايته الإنسانية وتنقص من قدرته على أداء عمله ، وتوقعه بالتالى فى الفقر .

والاستغفار من الذنوب يصلح فى كل زمان ، يستغفر العوام بعد ارتكاب الذنوب ، ويستغفر الخواص قبل ارتكاب الذنوب ثم لا يرتكبونها .. مجرد التفكير في الذنب وعدم الإقدام عليه يستحق من الخواص أن يستغفروا الله .

وليس لإستغفار الإنسان وقت محدد .. يستطيع المرء أن يستغفر ربه في أى وقت وفى كل وقت .. ورغم ذلك .. فهناك أوقات للاستجابة . ويقع من

الأرض يستجاب فيها أيضا .

من أوقات الإستغفار .. الأسحار .. ثلث الليل الأخير .. تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا وتنادى : « هل من مستغفر فأغفر له .. هل من تائب فأتوب عليه .. هل من سائل فأعطيه » .

وهناك بقع من الأرض يقبل الله فيها استغفار عباده .. كالأماكن المقدسة التى تحف بها رحمة الله عز وجل : الكعبة ومسجد النبى عليه الصلاة والسلام والمسجد الأقصى ..

يعتقد الصوفية أن الإستغفار والتوبة يكونان عما سيأتى ويتعلقان بالمستقبل ، يقال لآحاد الناس توبوا عما مضى من الذنوب .. ويقال للصوفية ما مضى قد مضى . والتوبة عما سيجىء بالكف عنه قبل ارتكابه .

فى الغيبـــة

يتصور بعض الصائمين أن الصوم هو امتناع عن الطعام والشراب ، وحقيقة الصوم أنه امتناع الجوارح عن الحركة التى تستهدف غير الله .

ويسلى الناس صيامهم أحيانا بالحديث ، وينزلقون فى الحديث أحيانا إلى الغيبة ، ويضيع أجر الصوم ساعتها على صاحبه ، ينصرف جزاء الصائم لمن اغتابه .

قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** » . ويصل الإسلام إلى حد الحساسية المطلقة فى اعتبار بعض التعليقات الطائرة من الغيبة .

روى أبو هريرة أن رجلاً قام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من قبل جالسا ، فقال بعض القوم : « ما أعجز فلانا » . فقال صلى الله عليه وسلم : « أكلتم أخاكم واغتبتموه » .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام :

« من مات تائبا عن الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصمما عليها فهو أول من يدخل النار » .

وقال الصوفية : مثل الذى يغتاب الناس ، كمثل من نصب مدفعا يرمى به حسناته شرقا وغربا . والغيبة تأكل حسنات الإنسان فلا تبقى له منها شيئا .

قال العارفون : « يؤتى العبد يوم القيامة كتابه فلا يرى فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتى وصيامى وطاعاتى ؟ فيقال : ذهب عملك كله باغتيابك للناس » .

وقيل : يعطى الرجل كتابه فيرى فيه حسنات لم يعملها .. فيقول : هذه حسنات لم أعملها . فيقال له : بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر ..

قال سفيان بن الحسين : كنت جالسا عند إياس فنلت من إنسان ، فقال لى : هل غزوت الترك والروم هذا العام .. قلت : لا .. قال : سلم منك الترك والروم ، وما سلم منك أخوك المسلم ..

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك فقال : لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدى ، إنهما أحق

بحسناتى .

والغيبة درجات ، أخطرها أن يتهم المسلم أخاه بما ليس فيه ، أو يتحدث عنه بسوء هو فيه ، إلا من ألقى عن وجهه جلباب الحياء .

وأبسط درجات الغيبة أن يعترض المؤمن فى قلبه على مسلم غيره .. حكى الجنيد عن نفسه هذه الحكاية قال :

كنت جالسا فى مسجد أنتظر جنازة أصلى عليها ، وجلس أهل بغداد ينتظرون مثلى الجنازة .. فرأيت فقيرا عليه أثر النسك وهو يسأل الناس .. قلت فى نفسى .. لو عمل هذا عملا يصون به نفسه كان أجمل ..

فلما انصرفت إلى منزلى ، وكان لى شىء من الأوراد بالليل .. كالصلاة والذكر والبكاء ...ثقلت على جميع أورادى .. فسهرت وأنا جالس .. فغلبتنى عيناى فنمت .. ورأيت فى نومى مائدة كبيرة يرقد عليها هذا الفقير الذى كان يسأل الناس فى المسجد . وقيل لى :

ـ كل لحمه فقد أغتبته .

قلت :

ـ ما اغتبته وإنما قلت فى نفسى شيئا .

فقيل لى :

ـ ما أنت ممن يرضى منك بمثله .. اذهب فاسأله أن يعفو عنك .

وأصبح الجنيد فبدا بحثه عن الفقير وعثر عليه إلى جوار ماء كان الناس يغسلون عندها بقولهم فيسقط منها شىء فيلتقطه .. رأى الجنيد الرجل هناك ، وتقدم منه وسلم عليه .. فقال له الفقير :

ـ تعود إليها ياأبا القاسم .

قال الجنيد : لا .

فقال الرجل : غفر الله تعالى لنا ولك ..

اســم الله الأعظــم

غاية الإسلام بكل عباداته إيقاظ العقل الإنسانى ، وهدايته إلى التأمل والنظر والتفكير حتى يصل إلى حقيقة المعرفة بالله ..

يحدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن أسمائه ، ويأمرنا تكرما ورحمة أن ندعوه بها .. قال تعالى : « **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوافله الأسماء الحسنى** » .

وقال تعالى : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** » .

وكما أن لله هذه الأسماء ، فله اسم أعظم ، إذا دعى به سبحانه أجاب ، وإن سئل به تعالى أعطى .. عن بريرة رضى الله عنه قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ، وهو يقول : (اللهم إنى أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

قال الرسول : لقد سأل الله باسمه الأعظم .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل

النبى صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ربه ويقول فى دعائه (اللهم لا إله إلا الله أنت المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام) .

قال الرسول : أتدرون بم دعا الله .. دعا الله باسمه الأعظم .

وعن أسماء بنت يزيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين » : « **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** » وفاتحة آل عمران « **ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم** » .

وعن سعد بن مالك رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإن سئل أعطى ، الدعوة التى دعا بها يونس حين نادى فى الظلمات الثلاث « **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** » .

قال رجل يا رسول الله : هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة .. قال الرسول : ألا تسمع قول الله عز وجل « **ونجيناه من الغم .. وكذلك ننجى**

المؤمنين » .

ربما يسأل المسلم عن حقيقة اسم الله الأعظم .. أين هو فى هذه الأسماء كلها .

ربما يحس المؤمن بالحيرة وقد قال الرسول كل هذه الأحاديث عن اسم الله الأعظم ..

كان ذو النون في الصحراء حين صادفه شيخ يتعبد .

سأله ذو النون :

- ما تجريد التوحيد ؟

قال الشيخ العابد :

- فقدان رؤية ما سواه
سأل ذو النون :
- ما إسم الله الأعظم ؟

قال العابد :
- أن تقول الله وأنت تهابه ..

قال ذو النون :
- كثيرا ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

قال الشيخ :

ـ لأنك تقول الله من حيث أنت .. لا من حيث هو .

بهذا الحـوار بين الصوفى والشيخ العابد يستقر فى القلب المعنى الكريم لإسم الله الأعظم .. أن يقول الله وهو يهابه .. وأن يقال الإسم وفى القلب تمثل لقدرته واستحضار لكبريائه ونوره .

فى القناعـــة

قال الله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » . قال المفسرون : الحياة الطيبة فى الدنيا هى القناعة ..

والقناعة هى الإكتفاء بما تدعو إليه الحاجة من مأكل وملبس ، وهى مطلوبة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القناعة كنز لا يفنى » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » . فسرها المفسرون بقولهم : أى ترك مالا حاجة له به ..

وقال بشر الحافى : « القناعة ملك لا يسكن إلا فى قلب مؤمن » . وقال الدارانى : « القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد .. هذا أول الرضا وهذا أول الزهد » .

وقال أبو بكر المراغى : « العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدين بالعلم والإجتهاد » .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كن ورعا تكن أعبد الناس ، وكن قنوعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » .

فسروا حديث الرسول بقولهم : إن ثمرة القناعة فى الدنيا هى السلامة ، والورع يجتنب ما يضره شرعا فيكون أعبد الناس ، أما القانع فيكون أشكر الناس لأنه يكتفى بما فتح الله به عليه فتكثر عليه نعم الله ، ويرى أصغر نعمة نعما كبرى ، بخلاف الشره فهو لا يرى من النعم إلا العظائم فيقل شكره ..

وقال وهب : إن العز والغنى خرجا يجولان يطلبان رفيقا ، فلقيا القناعة فاستقرا .

وقال العارفون : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع .. وضع العز فى الطاعة ، والذل فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة ..

وقال ذو النون المصرى : من قنع أستراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه . ورأى رجلا حكيما يأكل ما تساقط من البقول على رأس ماء .. فقال

له : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا .. قال الحكيم : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان ..

وقيل : لما نطق موسى عليه السلام بذكر الطمع فقال للخضر : لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال الخضر له : هذا فراق بينى وبينك . وجاء فى القصص المتخيل : إن موسى عليه السلام حين قال كلمته للخضر وقف ظبى بينهما .. وكانا جائعين .. فإذا جانب الظبى الذى يواجه الخضر مشوى والجانب الذى يواجه موسى حى كما هو ..

قيل فى تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم » هو نعيم القناعة فى الدنيا قبل نعيم الآخرة . وفى تفسير قوله تعالى « وإن الفجار لفى جحيم » جحيم الدنيا هو الحرص عليها .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » أى مقاما فى القناعة أنفرد به من أقرانى وأكون راضيا فيه بقضائك ..

قيل لأبى يزيد البسطامي : بم وصلت إلى ما وصلت إليه .. قال : جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة ووضعتها فى منجنيق الصدق ورميت بها فى بحر اليأس .. فاستر حت ..

فى الأنـــس بالله

الأنس بالله جل ثناؤه أرق وأعذب من الشوق عند الصوفية ، لأن المشتاق كان بينه وبين الله تعالى مسافة خفيفة ، بسبب شوقه ، أما المستأنس فأقرب من الله عز وجل .

ومن صدق الأنس بالله ما يروى عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه خطب إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنه ابنته وهو يطوف ببيت الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ولم يرد عليه جوابا . ثم لقيه عبد الله بعد ذلك فقال له : « إنك كلمتنى فى الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا » .

وروى عن عامر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : ما نظرت إلى شىء قط إلا كان الله تعالى أقرب إلىَ منه .

وكان الصوفى المصرى ذو النون يسيح فى الأرض حين التقى بشيخ فألقى إليه بتحية الإسلام . قال الشيخ : وعليك السلام يا ذا النون .. فتساءل ذو النون دهشا كيف عرفه الشيخ ، فأجاب : بمعرفة

الحب .. ودار بينهما الحوار .. سأله ذو النون :

* كيف الطريق إلى الله .

ـ دع طريق الخلاف والإختلاف .

* أليس اختلاف العلماء رحمة .

ـ إلا فى تجريد التوحيد .

* وما تجريده .

ـ فقدان رؤية ما سواه .

* وهل يشتاق العارف إلى الله .

ـ وهل يغيب الله عنه طرفة عين حتى يشتاق .

* ما اسم الله الأعظم .

ـ أن تقول الله وأنت تهابه .

* كثيرا ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

ـ لأنك تقول الله من حيث أنت .. لا من حيث هو .

* عظنى ..

- حسبك من الموعظة علمك بأنه يراك .

كلمات الشيخ لذى النون ، هى درجة من درجات الأنس بالله عز وجل .. خاصة إذا لاحظنا جزء الحوار الذى يسأل فيه ذو النون عن اسم الله الأعظم فيصرفه عن ذلك شيخه بأن يقول له أن تقول الله وأنت تهابه .. فإذا ألح طالبا المزيد بالسؤال وادعى أنه ينادى الله بغير إحساس بالهيبة أجابه الشيخ : « لأنك تنادى الله من حيث أنت لا من حيث هو » .

يقصد الشيخ بذلك أن يقول له : أنك لم تزل محجوبا فى وجودك عن وجود خالقك فالأنس الحقيقى فقد ووجود : فقد لذات العبد ، ووجود له بالله أو فى الله ، أى فناء عن الذات المشاهدة وأوصافها وآثارها ، وبقاء فى خالقها وحده .. ساعتها تدرك الهيبة العبد وهو يدعو خالقه .

فى المـال

هذه الأرض التى نعيش فوقها ونعمرها .. نأكل منها وننمو عليها ، ونعود إليها .. هذه الأرض ليست من صنع البشر ، ولا من عمل أيديهم ، وما فى استطاعتهم خلق أرض مثلها ولا دونها ، وما كانوا فى يوم من الأيام أهلا لذلك ولن يكونوا .. إنما هم بشر خلقهم خالق الأرض والسماء « **بل أنتم بشر ممن خلق** » .

يعرف الإنسان هذه الحقيقة ولا يجادل فيها .. يعرف أن حدوده ـ رغم كل الإنشاءات البشرية والإبداع الإنسانى ـ تقف بالخشوع والعجز عند حد الخلق .. لا يجرؤ مخلوق أن يتعداه أو يفكر فى تجاوزه .. وقد قيل قديما للمشركين ويقال اليوم لهم :

« **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** .. » .

اختص الله عز وجل نفسه بالخلق ، خلق كل شىء مما نستطيع تصوره ومما نعجز عن تصوره ،

خلق ما نستطيع الإحاطة بكنهه .. وما نعجز عن الإحاطة بكنهه ..

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه » .

هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما .. وهو الذى خلق الأزواج كلها **« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .** وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر .. **« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » . « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .**

الله خالق الكون وكل شيء فى الكون ، وهو نفسه خالق الإنسان .. وهو نفسه الذى سخر للإنسان كل خلقه الآخر . **« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .**

نعرف من كتاب ربنا أن كل ما فى الكون قد سخر للإنسان . **« الله الذى خلق السموات والأرض ،**

وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وإلى جوار ما سخره الله للإنسان فى الكون ، جعل سبحانه البشر مستخلفين فى الأرض ..

قال تعالى : « **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** » .

وتسخير ما فى الكون للبشر واستخلاف البشر فى الأرض يعنيان أن أحدا منهم لا يملك شيئا مما يتصور أنه يملكه .. فكل شيء هو ملك لله عز وجل « **لله ملك السموات والأرض وما فيهن** » . والبشر مأمورون بالإنفاق مما جعلهم الله مستخلفين فيه ..

قال تعالى فى سورة الحديد : « **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » .

وذلك يعنى أن المال الذى نتصور أننا نملكه هو مال الله عز وجل ، وقد سمح لنا بالانتفاع به ، وشاعت

رحمته أن يكون الانتفاع به بأكثر من وجه كاستغلاله أو استثماره أو إستهلاكه أو التصرف فيه .. رغم كل هذه التصرفات التى ترد على المال يبقىٰ المال مال الله عز وجل .. بداهة أنه خالقه ورازقه ، وخالق الشيء ورازقه.هو مالكه الوحيد ..

قال تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت » .

بهذه النظرة الصائبة ينظر المتصوفون والعارفون بالله إلى ما فى أيديهم من أموال يعرفون أنها وديعة بين أيديهم وقد منحوها كيما يرى الله هل يقوم الإنسان عليها فى حدود أمره ونهيه أو لا يقوم ..

وإذا كان لكل فرد حق الإنتفاع بما فى يده من مال الله فى الحدود التى رسمها ، فإن للغير حقوقا فرضها الله فى هذا المال وأوجب على من فى يده المال أن يقوم بها باعتباره مستخلفا فى مال الله .. هذه الحقوق هى الزكاة والإنفاق والصدقة .

فى الإنفـاق

لله فى ماله المودع بين أيدى العباد أكثر من حق .. حق إنفاقه فيما خلقه من أجله من استمتاع طيب لا يتجاوز الحد ، وحق الزكاة ، وحق إخراج الصدقة .

والزكاة فريضة فى المال ، وهى من أركان الإسلام الخمسة ، وتجب على كل مال حال عليه الحول . أى مضى عليه عام كامل فى يد الإنسان .. وتؤدى الزكاة إلى الحاكم ليعيدها إلى ذوى الحاجة .

بيد أن الإسلام لا يكتفى بالزكاة وحدها حقا فى المال ، إنما يرسم معها صورة أخرى من إنفاق المال رغم حبه ..

وتقدم آيات الله أحيانا انفاق المال على الصلاة والزكاة ، كما تجعلها دائما نتيجة عملية للإيمان بالله واليوم الآخر . يقول تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة

والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وكل إنفاق يراد به وجه الله هو انفاق فى سبيل الله ، وكل إنفاق في سبيل الله ـ أظهره المنفق أو أخفاه ـ يكفر من سيئاته ويغفر له من خطاياه . قال أرحم الراحمين :

« إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » .

ورغم أن المال مال الله ، ورغم أن العطاء عطاء الله ، نرى أكرم الأكرمين يثيب على الصدقة إلى الحد الذى يجعلها قراض له سبحانه ، وإلا فكيف يقترض وهو صاحب المال ، من ماله الذى تركه وديعة بين يدى عبده .. إنما هى الرحمة الشاملة التى تثيب لأنها الرحمة الشاملة .

قال تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل

الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

الله حقا يضاعف لمن يشاء ، يضاعف من رزقه الذى لا يعلم حدوده أحد ، ومن رحمته التى يجهل الخلق سعتها ومداها .. والله واسع العطاء لا يضيق عطاؤه ولا ينفد ، والله عليم يعلم بالنوايا ويثيب عليها .

ويقف الشيطان أمام كل صدقة يتهيأ المؤمن لإخراجها ، ليحذره من الفقر ويخيفه من المستقبل ، ويلقى في روعه أن هذا الإنفاق سيفقره ويحوجه والشيطان عدو ونصيحته كاذبة .

ذبح النبى صلى الله عليه وسلم شاة وتصدقوا بما تصدقوا به منها ، فسأل النبى عائشة رضى الله عنها . « ما بقى منها » . قالت : ما بقى منها إلا كتفها .. قال : بقى كلها إلا كتفها .. يقصد صلى الله عليه وسلم أن ما تصدقوا به هو الذى بقى له حقا فى الدنيا وفى الآخرة ، وأن ما أكلوه منها هو الذى ذهب .. وهذا مصداق قوله عز وجل : **« ما عندكم ينفد وما عند الله باق »** .

أبو سـعيد الخراز

أنزل الله تعالى أرواح عباده من عليائها إلى عالمنا هذا نزول كرامة لا نزول إهانة مصداقا لقوله تعالى للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » . وحين نزلت أرواح العباد إلى الأرض نزلت وهى ترتدى ثياب الجسد الإنسانى الذى يجرى عليه ما يجرى على الجسد من حياة ورزق ورغبة ورهبة وحب وموت . وفى الأرض تنقسم أرواح الناس إلى قسمين كبيرين : قسم يشده الحنين إلى تلك الحال الصافية التى كان عليها قبل أن يولد .. وقسم يشده طين الأرض .. والصوفية من القسم الأول ..

الصوفية من هذا القسم الذى يريد الرجوع إلى الحالة التى كانت عليها الأرواح قبل أن تولد ، فإذا تم لهذه الأرواح ما تريده ، وحدت الله التوحيد الكامل ، وفنيت عن وجودها الزمنى وبقيت بالله وحده . ويعتبر العارف بالله أبو سعيد الخراز أول من تكلم فى علم الفناء . وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم كما يذكره صاحب طبقات الصوفية . ولد أبو سعيد الخراز فى بغداد فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وصحب ذا

النون المصرى ، وسريا السقطى ، وبشر بن الحارث ، ونظراءهم . وله فى الصدق كتاب توارثه الصوفية وأحاطوه بالكتمان وضنوا به على العامة حتى حققه الدكتور عبد الحليم محمود .

سئل أبو سعيد الخراز عن أوائل الطريق إلى الله . قال : إن أوائل الطريق إلى الله تعالى التوبة ، ثم ذكر شرائطها ثم ينتقل العبد من مقام التوبة إلى مقام الخوف ، ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء ، فإلى مقام الصالحين ، إلى مقام المريدين ، ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين ، ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين ، ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء ، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين .

ولأبى سعيد الخراز فلسفته فى البلاء .. يرى أن العبد يبتلى حسب دينه ، فإن كان فى إيمانه ضعف خفف عليه البلاء .

فالأنبياء عليهم السلام ، بادأهم الحق عز وجل بكرامة الرسالة ، وبشرهم بالنبوة ، ثم حمل عليهم البلاء ، فاحتملوا البلاء ، بقدر الكرامة التى أكرمهم

بها ، حتى راضهم الله بالبلاء واسلس قيادهم به ، وحتى تفقهوا فيه ، وبه صبروا لله عز وجل حتى نصروا .

أما المؤمنون فعلى وجهين : منهم من يبدؤه الله تعالى بالنعمة والمنة والموهبة فيهب له الإنابة ، ويحبب إليه البر ، ويسهل عليه الطاعة ، ويكلؤه بالمنن الكثيرة ، فإذا تمكن الروح في قلبه ، واستعذب الأعمال الصالحة ، حمل الله تعالى عليه بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعسر والشدة .

ثم تؤخذ منه الحلاوة التى كان يجدها ، والنشاط فى البر ، فتثقل عليه الطاعة بعد خفتها ، ويجد المرارة بعد الحلاوة ، والكسل بعد النشاط ، والكدر بعد الصفاء ، وذلك لعلة البلوى والاختبار ، فإن جاهد وجد واحتمل المكروه صار إلى حد الراحة والبلوغ وضوعف له البر ظاهرا وباطنا .

يروى فى الحديث أن الله عز وجل يأمر جبريل عليه السلام فيقول : « اقبض حلاوة الطاعة من قلب عبدى ، فإن تأسف عليها فردها عليه وزده ، وإلا فدعه » .

ومن كلمات أبى سعيد الخراز قوله : إن الله تعالى جعل العلم دليلاً عليه ليعرف ، وجعل الحكمة رحمة منه ليألف ، فالعلم دليل إلى الله ، والمعرفة دالة على الله . والعلم بالتعلم ، والمعرفة بالتعرف ، وكل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل .

ومن كلماته العميقة قوله عن موسى عليه السلام إذ طلب رؤية الله تعالى : « لولا أن الله عز وجل أدخل موسى عليه السلام فى كنفه لأصابه مثل ما أصاب الجبل » أى لدك دكا .

وحدة الشــهود

للصوفية شطحات ، ومن شطحات أبو يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ قوله : « حججت مرة فرأيت البيت ، وحججت ثانية فرأيت البيت وصاحبه . وحججت ثالثة فلم أر البيت ولا صاحبه . » يرمز بذلك الحج إلى السفر الروحى ، وأول مراحله رؤية العالم وإدراكه حسيا ، ثم إدراكه العالم والله ، ثم إدراكه فى حجه الثالث الكل الذى لم يميز فيه بين البيت وصاحب البيت ، أى إدراكه الله وحده وغياب العالم . وذلك تفسير كلمة الجنيد (يذهب هو) أى يذهب العبد وعالمه ولا يبقى غير الله عز وجل .

وهذه الرحلة التى تقوم بها الأرواح الإلهية المجنحة بالتوبة والحب الإلهى على إختلاف درجاتها . هذه الرحلة لابد أن تنتهى .. بوحدة الشهود .. بمعنى أن يرى الصوفى الله فى الكل فاعلا ، ثم ينتهى بأن لا يرى غير الله ، ووحدة الشهود طريق طويل لكل واحد حظه بمقدار ما يأخذ منه .

سئل الجنيد عن التوحيد فقال :

وغنـــى لى منـــى قلبـــى
وغنـــيت كمـــا غنـــى

وكنـــا حيثمـــا كانـــوا
وكانـــوا حيثمـــا كنـــا

تعجب السائل لأن الجنيد لم يستشهد بآيات من القرآن أو الأحاديث النبوية حين سئل عن التوحيد .. وإنما استشهد بالبيتين السابقين ، ولهذا قال السائل : أهلك القرآن والأخبار .

قال الجنيد : لا .. ولكن المُوحد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب وأيسره . يريد الجنيد أن يقول أن الموحد يستدل بكل شيء على وحدانية الخالق ،

وفـــى كل شيء له آيـــة
تدل علـــى أنـــه الواحـــد

التصوف صفاء ومشاهدة ، والطريق إلى الصفاء يمر بالعبادة ، والمشاهدة هى وحدة الشهود أو خاتمة المطاف .. قال أبو بكر الشبلى المتوفى سنة ٣٣٤ : التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير ، وهذه شطحة من شطحات الصوفى تعنى وحدة الشهود . شهود الصوفى لله تعالى فى كل

شيء . ومثال هذه الكلمة قول أبى عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ : التصوف غض الطرف عن كل ناقص بمشاهدة من هو منزه عن كل نقص .

ووحدة الشهود هي عين التوحيد وهي شيء آخر غير علم التوحيد .. هي حال نفسية أو تجربة روحية يعانيها الصوفي ، وليست عقيدة ولا دعوى فلسفية يحاول برهنتها ، ولا علما يطالب الغير بتصديقه . والفرق بين علم التوحيد ووحدة الشهود أو عين التوحيد هو الفرق بين العلم العقلي وبين التجربة الروحية .. إن الصوفي يرتقي بعد العلم إلى ممارسة الشهود ذاته .

أشهد أن لا إله إلا الله .. بمعنى لا أشهد غير الله .

ووحدة الشهود أو عين التوحيد أو الفناء ، هى أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية ، وهى التى تميز حياتهم عن حياة غيرهم من العابدين . يقول أبو سعيد الخراز : أول مقام لمن وجد التوحيد وتحقق بذلك ، فناء ذكر الأشياء من قلبه وانفراده بالله عز وجل .

ويقول أبو بكر الشبلى لرجل : أتدرى لم

لا يصح توحيدك . قال : لا . قال : لأنك تطلبه بك ..
بمعنى أن الرجل لم يزل يرى نفسه ، وحين لا يرى
سوى الله يصح توحيده .

ووحدة الشهود تبدأ بأن يرى العابد ربه ثم
يحبه .. فى النسمة العليلة ، فى الزهرة الندية ، فى
النجم المتألق ، فى شعاع الشمس وعذوبة الغروب
وجمال الخير وروح الجلال . ثم يترقى العابد ، يبدأ
يحب ، والحب يتعلل إلى محبوبه بكل شىء ، ولا
يتسلى عنه بشىء ، ويتبع آثاره ، ولا يدع استخباره .
وكثيرا ما أنشد تعبيرا عن حاله :

أسائلكم عنها فهل من مخبر

فمالى بنعم ـ مذ نأت دارها ـ علم

فلو كنت أدرى أين خيم أهلها

وأى بلاد الله ـ إذ ظعنوا ـ أموا

إذن لسلكنا مسلك الريح خلفها

ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم

ثم يترقى العبد فى العبادة فيصير فرحه فى العطاء
بالمعطى ، وتصير لذاته فى اللذات بخالق اللذات .
ويصبح تنعمه فى النعم بالمنعم دون النعم ، لأن ذكر

النعمة عند ذكر المنعم حجاب ، ورؤية النعمة عند رؤية المنعم حجاب .

يقول صلى الله عليه وسلم : «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » فواعجبا ممن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته إليه ؟ .

الصحو والسكر

كان التصوف حرقة فصار خرقة .

تصور المسلمون - فى فترات تأخرهم - بعد هجرهم لكتاب الله ، أن التصوف يمكن أن يكون رسما بدلا من أن يكون حقيقة ، وإنه يمكن أن يكون إدعاء بدلا من أن يكون عملا .. ولقد ذهب بعض مدعى التصوف إلى القول بأن الصلاة والصيام والحج حركات لا تلزمهم إذ وصلوا فى تصوفهم إلى درجة تخطوا فيها مرحلة العبادة إلى مرحلة القرب ، وهى مرحلة تسقط فيها التكاليف ، بداهة أن الوصول إلى الغاية يغنى عن الوسيلة .

وهذه الدعوى تقف ضد الدين كما أنها تقف ضد التصوف ، ولكبار أئمة التصوف آراؤهم الحاسمة فى ذلك .

قيل للجنيد يوما : إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات أو التكاليف من باب البر والتقوى إلى الله تعالى .. فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهذه عندى جريمة عظيمة والذى يسرق

ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا . وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها .

كان التصوف حرقة فصار خرقة ، كان حرقة فى القلب فصار خرقة على الجسد ، كان حقيقة ثم صار رسما .. وحين ينزع الله الحياء من قلوب عباده ، فإنهم يضلون الطريق إلى عبادته ولا يوقرونه سبحانه ، والذين يتطوحون أو يتمايلون أو يتواجدون في مجالس الذكر ليسوا على شيء .

يتداول الصوفية كلمتين هما الصحو السكر .

يعرف القشيرى السكر بأنه غيبة بوارد قوى ، ويأتى هذا الوارد عندما يتجلى الحق للعبد بصفة من صفات جماله فيقع العبد فى حالة أشبه ما تكون بحال السكر ، ولقد برر هذا من أخذ بمذهب السكر من الصوفية بأن الصحو فى نظرهم يقتضى وجود الصفات البشرية التى هى أعظم حجاب يحول بين العبد وربه .

وهذا الفهم خطأ ، ولسوف نرى كيف تحسمه مواقف أئمة الصوفية كالجنيد وأصحابه . إنهم يرون أن السكر يخرج بالعبد عن حالته الطبيعية ويفقده سلامة العقل الواعى والقدرة على التصرف .

والسكر فى نظر الجنيد وأصحابه أشبه بميدان لعب الأطفال وأليق بالمبتدئين . والسكر عندهم توهم فناء الذات مع بقاء الصفات ، وهذا هو الحجاب بعينه ، أما الصحو ، فهو رؤية بقاء الذات مع فناء الصفات ، وهذا هو الكشف .

ومما يزيد فى قيمة الصحو فى نظر الجنيد أنه لا مجال فيه لإظهار المواجد . وإظهار المواجد من الأمور التى عاب بها الجنيد على الصوفية واعتبرها من علامات ضعف الروحانية .

دخل عليه الشبلى متواجدا كعادة الصوفية ، فقال له الجنيد :

- إن كنت ترى نفسك فى حضرة الله فهذا سوء أدب ، وإن لم تكن فى حضرة الله فبماذا ظفرت حتى تتواجد .. فهتف الشبلى : التوبة ياإمام .

وكان الحلاج ممن يظهرون مواجدهم ولهذا رفض الجنيد صحبته . أتى الحلاج يوما إلى الجنيد فقال له الجنيد :

- ماذا جاء بك إلينا .

قال الحلاج : جئت لصحبة الشيخ .

قال الجنيد : أنا لا أصحب المجانين . إن الصحبة تقتضى كمال العقل .

قال الحلاج : يا شيخ إن الصحو والسكر صفتان للعبد ، والعبد محجوب عن ربه حتى يفنى عن صفاته .

قال الجنيد : يا ابن منصور إنك أخطأت فى الصحو والسكر . إن الصحو سلامة الحال مع الله ، والسكر المبالغة فى الشوق والمحبة ، وليس واحد من هذين ينال بالكسب . يا ابن منصور ، إن فى كلامك حماقة ومخرفة .

ومن تعبيرات الجنيد فى الوجد قوله :

قد كان يطربنى وجدى فافقدنى
عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود

الوجد يطرب من فى الوجد راحته
والوجد عند شهود الحق مفقود

ابن عطـــاء

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمى .. من مشايخ الصوفية وعلمائهم .. قال عنه أبو سعيد الخراز : التصوف خلق وليس آنابه ، وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء . كانت كلمات هذا الصوفى قريبة العهد من الله ، تتوهج بنور الصدق .. ومن كلماته وما رواه من كلمات شيوخه .

• فى البيت مقام إبراهيم ، وفى القلب آثار الله تعالى ، وللبيت أركان ، وللقلب أركان ، وأركان البيت من الصخر ، وأركان القلب معادن أنوار المعرفة .

• خلق الله تعالى الأنبياء للمشاهدة لقوله تعالى « أو ألقى السمع وهو شهيد » وخلق الصالحين للملازمة فقال تعالى « وألزمهم كلمة التقوى » وخلق العوام للمجاهدة فقال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

الام تسكن قلوب العارفين إن لم تسكن إلى قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم . لأن فى بسم الله هيبته . وفى اسم الرحمن عونه ونصرته ، وفى اسم الرحيم محبته ومودته .

• لما عصى ادم بكى عليه كل شيء في الجنة ، إلا الذهب والفضة ، فأوحى الله تعالى إليهما لم لم تبكيا على آدم . فقالا ماكنا لنبكي على من يعصيك . فقال عز وجل ، وعزتي وجلالي لأجعلن قيمة كل شيء بكما ، ولأجعلن ابن آدم خادما لكما .. إلا المتقين .

• أسامي بنفسي ذلة واستكانة
إلى الخلة العياء من جانب الكبر
إذا ما أتاني الذل من جانب الغنى
سموت إلى العلياء من جانب الفقر

• الأنصاف فيما بين الله وبين العبد في ثلاثة . في الإستعانة والجهد والأدب . فمن العبد الإستعانة ومن الله القربة ، ومن العبد الجهد ومن الله التوفيق ، ومن العبد الأدب ومن الله الكرامة .

• من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم ، في أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولا وفعلا وعزما وعقدا ونية .

• من وحشة القلوب عن مصادر الحق أنسها

بالأجناس ، ومن أنس قلبه بالله استوحش مما سواه .

• أجلك أن أشكو الهوى منك إننى
أجلك أن تومى إلـــي الأصابـــع
وأصرف طرفى نحو غيرك عامدا
علــى أنــه بالرغــم نحــوك راجــع
إذا صد من أهوى صددت عن الصد
وإن حال عن عهدى أقمت على العهد
فما الوجد إلا أن تذوب من الوجد
وتصبح فى جهد يزيد على الجهد

• العلم الأكبر هو الهيبة والحياء ، فمن عرى منهما عرى عن الخيرات .

الجنيـد

حين ذهبت حقائق الأشياء وبقيت أسماؤها ، كان الله يبعث عباده الأولياء ليزداد عدد الصادقين فى الصالحين ومن أئمة الصوفية وسادتهم أبو القاسم الجنيد ، أصله من نهاوند ، ولد ونشأ بالعراق ، أسند الحديث وكان فقيها وصوفيا .

وصحب السرى السقطى والحارث المحاسبى وغيرهما من سادة الصوفية واعتبر من أئمتهم . توفى سنة ٢٩٧ ، وهو المسئول عن نقل التوحيد من ميدان علم الكلام بجفافه ومزالقه إلى الميدان الصوفى بوهجه واستنارته ، أو هو المسئول عن نقل التوحيد من ميدان النظر العقلى إلى ميدان التجربة الروحية . بداهة أن العقل الإنسانى المحدود ليس أداة لقياس الجلال غير المحدود .

والتوحيد فى نظر الجنيد أربع درجات :

١ ـ توحيد العوام ، وهو إقرار بالوحدانية وإنكار للأرباب والأنداد مع السكون إلى الرهبة والرغبة المتعلقين بما سوى الله وعلى ذلك توحيد أكثر أهل الأرض اليوم .

٢ ـ توحيد أهل الظاهر ، وهو الإقرار بالوحدانية وإنكار الأرباب والأنداد مع إقامة الأمر والانتهاء عن النهى فى الظاهر . والسكون إلى الرغبة والرهبة .

٣ ـ توحيد الخواص على وجهه الأول : وهو الإقرار بالوحدانية على الوجه السابق ، مع إقامة أوامر الشريعة فى الظاهر والباطن ، وإزالة الرغبة والرهبة المتعلقين بكل ما سوى الله .

٤ ـ توحيد الخواص على وجهه الثانى ، وهو أن يصل العبد إلى حال يكون فيها شبحا قائما بين يدى الله .

والتصوف فى نظر الجنيد ليس كلمات تقال فى نهاية الأمر ، لم يأخذ القطب التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات ، لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى ، وأصله (هجرة) الدنيا ، كما قال المحاسبى : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى . كان التصوف عند الجنيد إذن نعتا أقيم العبد فيه .. أى صفة يقيم فيها .

ولأن عمله كان فى القمة ، كانت أقواله غنية فى

معانيها بعيدة الغور في مراميها ، ولهذا استعصت بعض كلمات الجنيد على كبار رجال التصوف أمثال ابن عربي الذي صرح بأنه لا يفهم كلامه .

لقد كان الجنيد كما يقول القشيري من أكثر الصوفية وقوعا تحت غلبة الحال ، والأقوال لا تفي بالترجمة عن الأحوال ، فهو وإن كان يشير من طرف خفي إلى الحقيقة ، فهو لا يستطيع إن يصحب المريد إلى غاية الطريق .

والتصوف في نظر الجنيد تجربة شخصية لا يكفي لتوفرها أن يصحب المريد شيخا يتلقى من يديه الهداية إن الهداية لا تجيء إلا لمن يسعى إليها وحده ، ومعرفة الله تعالى لا تنبعث إلا من قرار تجربة صوفية خالصة ، وكل إنسان مسئول عن عمله ، وكل إنسان يولد وحده ويعرف الله وحده ولا واسطة بين العبد وربه إلا الوحي الذي أبلغه الأنبياء ونطقت به الكتب السماوية .

يقول الجنيد ، الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ، ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه .

قال الجنيد : « إن الله تعالى يخلص إلى القلوب من بره حسب ما خلصت القلوب به إليه من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك .

المحاسبى

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، هو أعظم مؤلف صوفى فى القرن الثالث الهجرى ، وأستاذ الغزالى فى معالجة المسائل الصوفية ، وهو كما يقول كتاب الطبقات من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات ، وله كتب مشهورة أهمها « الرعاية لحقوق الله » الذى تأثر به الغزالى فى كتابه الأحياء .

تكلم فى المحبة الإلهية فقال : هى حب الإيمان ، وذلك أن الله قد شهد للمؤمنين بالحب فقال عز وجل : « والذين آمنوا أشد حبا لله » فنور الشوق من نور المحبة ، وزيادته من حب الوداد . وإنما يهيج الشوق فى القلب من نور الوارد ، فإذا أسرج الله ذلك السراج فى قلب عبد من عباده لم يتوهج فى فجاج القلب إلا استضاء به ، وليس يطفىء ذلك السراج إلا النظر إلى الأعمال بعين الأمان .

وتقوم فلسفة الحب عند المحاسبى على أساس من التواضع وعدم الإطمئنان لعمل العبد ، فهو لا يطمئن إلى العمل مهما عظم قدره من الطيبة وبلغ حظه من الصلاح

لأن الشعور بالأمان وحسن الظن بالأعمال يولد في النفس الكبرياء والأمن من مكر الله أو تدبيره ، ومن أمن على عمله واطمأن إليه صدأت نفسه وكان عمله الطيب حجابا بينه وبين ربه .. فإذا أمعن العبد في رضاه عن نفسه سلبت المحبة الحقيقية من قلبه .

المفروض إذن أن يظل العبد رغم أعماله الصالحة في مقام الخوف الذي تنبعث منه المحبة . كيف نعرف المحبة عند المحاسبي إذن . يقول المحاسبي : ليس للحب شبح ماثل ولا صورة فيعرف بجبلته وصورته ، وإنما يعرف المحب بأخلاقه وكثرة الفوائد التي يجريها الله على لسانه ، وما يوحي إلى قلبه . وأوضح شواهد المحبة لله شدة النحول بدوام الفكر ، وطول السهر بسخاء النفس بالطاعة ، وشدة المبادرة خوف الموت .

كيف الطريق لهذه المحبة إذن .. الطريق إلى المحبة يمر بالزهد لكنه ليس هو الزهد ، الزهد في كل شيء غير المحبوب . وهذا هو الزهد الذي يورث الراحة . يقول المحاسبي : « العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الإنابة » .

سمى المحاسبي على إسمه لانه ممن يحاسبون

أنفسهم فى الدنيا قبل أن تحاسب فى الآخرة ، ولأنه من الملامتيه الذين يلومون أنفسهم أو يملكون نفوسا لوامة من نوع النفوس التى أقسم الله تعالى بها . ويرى المحاسبى أن المحاسبة والموازنة تكون فى أربعة مواطن : فيما بين الإيمان والكفر ، وفيما بين الصدق والكذب ، وبين التوحيد والشرك ، وبين الإخلاص والرياء .

والمحاسبى يرى أن الباطن هو هدف الصوفى قبل الظاهر ، فمن اجتهد فى باطنه أورثه الله تعالى حسن معاملة ظاهره ، ومن صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة وإتباع السنة .. ومن قام بتحسين معاملته فى ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله تعالى الهداية إليه .. قال عز وجل « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » .

من رأيه أن التسليم هو الثبوت عند نزول البلاء ، من غير تغير العبد فى الظاهر والباطن ، وسئل عن الرجاء فقال : الطمع فى فضل الله تعالى ورحمته ، وصدق حسن الظن عند نزول الموت . وهو يعتقد أن من لم يشكر الله على النعمة فقد استدعى

زوالها ، وإن أقهر الناس لنفسه هو الراضي بالمقدور ، ويرى أن لكل شيء جوهرا ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر .

الحزن عنده على وجوه ، حزن على فقد أمر يحب وجوده ، وحزن مخافة أمر مستقبل ، وحزن لما أحب من الظفر بأمر فيتأخر عن مراده ، وحزن يتذكر من نفسه عصيان الحق فيحزن . وذلك أقسى ألوان الحزن وأمرها .

لا يمكن عند المحاسبي إدراك الحق تبارك وتعالى ، وأكمل العاقلين من أقر بالعجز عن إدراك كنه معرفته .

فى منزلة الدنيـا

قال عيسى عليه السلام للحواريين : ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا ، كلوا خبز الشعير ، واشربوا الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا آمنين سالمين ، إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين .

وقال الصوفية : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع فى القلب الشهوة ، ورب شهوة أورثت أهلها حزنا طويلا .

وقال عيسى بن مريم : يا ابن آدم اتق الله حيثما كنت ، وكن فى الدنيا ضيفا ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة ..

وقال عليه السلام : لا يستطيع أحدكم أن يتخذ من موج البحر دارا ، فلا يتخذ أحدكم من الدنيا قرارا .

وقال سفيان الثورى : لا يستقيم حب الدنيا

وحب الأخرة فى قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء ، وطالب الدنيا مثل شارب البحر كلما إزداد شربا ازداد عطشا حتى يهلك .

وينصح الصوفية بالدين بدلا من الدنيا .. قال شاعرهم :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا
ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما
استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

روى أبو مصعب عن مالك قوله :

ـ لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان .. معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

وقال عيسى بن مريم للحواريين : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا لهذه الطير تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها ، وإن قلتم نحن أعظم

بطونا من الطير ، فانظروا لهذه الوحوش فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها .

ينظر الصالحون إلى الدنيا باعتبارها دارا يعبرونها للتزود ، ليست دارا للقرار ، لا يبنى العاقل بيته على مياه البحر أو رمال الشاطيء الهشة ، لا يجعل الصوفى كنزه فى بيته ، إنما يجعل كنزه فى قلبه ويسلم قلبه للسماء .

مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة وقال : رب مر هذه المدينة أن تجيبنى ، فأوحى الله إلى المدينة أن تجيب ، سألها عيسى أين سكانها وماذا فعلت أنهارك وقصورك وأشجارك ؟ قالت المدينة : يبست أشجارى وجفت أنهارى وخربت قصورى ومات سكانى ، قال عيسى : أين أموالهم ؟ قالت : جمعوها من الحلال والحرام وها هى فى بطنى جميعا ولله ميراث السموات والأرض .

ويقول عيسى ساعتها : عجبت من ثلاثة إناس : طالب الدنيا والموت يطلبه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه .

في المـوت

قال الله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم » .

قال المفسرون : الطيب هو صاحب النفس الطيبة ، الذى يبذل مهجته لله ، ولا يثقل عليه الرجوع لمولاه .

دخل النبى صلى الله عليه وسلم على شاب وهو فى الموت فقال : كيف تجدك .. قال : « أرجو الله تعالى وأخاف ذنوبى .. قال عليه الصلاة والسلام : « لا يجتمعان فى قلب عبد إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخاف » .

ويختلف حال الصوفية وهم يموتون ، فمنهم من تغلب عليه الهيبة ، ومنهم من يغلب عليه الرجاء ، ومنهم من يقع له ما يوجب السكون والثقة .

قال بلال حين حضرته الوفاة : واطرباه . فقالت زوجته : واحزناه . قال بلال : وافرحاه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

دخلو على مكحول وكان صوفيا يغلب عليه الحزن في حياته ، فلما حضرته الوفاة كان يضحك .. سئل : كيف تضحك ؟ قال : لم لا أضحك وقد دنا فراق من كنت أحذره ، وجاء لقاء من كنت أرجوه وآمله .

سئل الدنيوري في مرض موته : كيف يجد العلة ؟ قال : اسألوا العلة عني كيف تجدني . وقيل له : قل لا إله إلا الله ، فحول وجهه إلى الجدار وقال : أفنيت كلي بكلك ، هذا جزاء من يحبك .

قال رويم : حضرت وفاة أبي سعيد الخراز .. فانشد قبل أن يموت :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر
وتذكارهـــم وقت المناجـــاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهمـــو
فاغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي السكر
همومهمـــو جوالـــة بمعسكـــر
به أهل ود الله كالأنجـــم الزهـــر
فاجسامهم في الأرض قتلى بحبه
وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري

فما عرسوا إلا بقرب حبيبهـــم

وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر

روى عن الأصبهانى أنه كان بمكة فخرج يريد المدينة .. فلما وصل إلى بئر ميمونة إذا شاب هناك راقد على الأرض .. فهرع إليه فألقاه يموت .. قال له :

قل لا إله إلا الله . ففتح الشاب عينيه وقال :

أنا وإن مت فالهوى حشو قلبى

وبـــداء الهـــوى تمـــوت الكـــرام

فى البعث

قال تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق .. وإنه يحيى الموتى ، وإنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وإن الله يبعث من فى القبور » .

يعرف المؤمنون بالقرآن الكريم ، أن لنا بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى خالدة . حياة أخرى يجزى فيها كل إنسان بما عمل . إن خيرا فخير وإن شرا فشر . يقول تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون .. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

وفكرة البعث لا تجد قبولا من الأذهان المغلقة ، كما أنها لا تستريح وسط الجهل ، ولا تستطيع أن تتعامل مع الغباء ، وكثيرا ما يتساءل الذين يتصورون أن الحياة مادة فحسب : كيف نعود إلى الحياة بعد صيرورة التراب .

قال تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

ولئن كان البعث حقيقة من الحقائق التى جاء بها الدين ، فهو أيضا من الحقائق التى يأمر بها العقل السليم والمنطق الصحيح .

وذلك أن العقل والمنطق والعلم الحديث توجب أن يكون بين الفضيلة والخير ، والرذيلة والشر ، رابطة العلة والمعلول .. بمعنى أن الفاضل يجب أن يلقى جزاءه على عمله الصالح ، وأن الأثيم يجب أن يلقى جزاءه على عمله السيء .

وهذا العدل المطلق لا وجود له فى الأرض .. فما أكثر الفضلاء التعساء فى حياتهم ، وما أكثر الأشرار الذين ينعمون بخيرات الدنيا وزينتها .. وإذن فمن العدل أن تكون هناك حياة أخرى يجد فيها الناس ما افتقدوه فى الأرض من عدالة مطلقة .

يقول تعالى ، فى وصف يوم القيامة والحساب : **« لا ظلم اليوم ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت »** وهذه الحقيقة البديهية يقود إليها المنطق السليم والفكر النظيف .. إن (ايمانويل كانت) . أحد أعلام مذهب الواجب فى الأخلاق فى العصر الحديث - يرى أن الاتحاد بين الفضيلة والسعادة غير واقع فى الحياة ..

وغير ممكن أيضا .. وتلك مشكلة يجب حلها . وقد رأى فى سبيل حلها عقليا أنه لا بد من فرض وجود الله وخلود الروح .. وجعل هذا من بديهيات علم الأخلاق ومسلماته .

ويرى الفيلسوف ابن رشد أن الانتقال من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الخالدة أمر يتفق فيه العقل والدين . أو هو على حد قول ابن رشد .. أمر اتفقت عليه الشرائع وقامت عليه البراهين عند العلماء ، فالإنسان لم يخلق عبثا فى هذه الحياة ، بل خلقه الله لغاية جليلة ، يعتبر تحقيقها بأفعاله ثمرة وجوده فى دار الدنيا .. فلا مناص إذن من أن يبعث بعد موته ليؤدى حسابا عما فعل .

قال تعالى : « أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وإنكم إلينا لا ترجعون » .

قال أبو العلاء المعرى وهو يكشف بشعره الجميل عن غباء الذين ينكرون البعث والحياة الأخرى .

قال المنجم والطبيب كلاهما :

لا تحشر الأجساد ، قلت : إليكما

إن صح قولكما فليس بضائرى

أو صح قولى فالخسار عليكما

قال تعالى وهو يرد على الذين يتساءلون عن عودتهم إلى الحياة بعد أن صاروا ترابا ورفاتا ، قال عز وجل : « **قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا . قل الذى فطركم أول مرة** » .

من أدعيـة الشــاذلى

إلهى إذا طلبت منك القوت فقد طلبت غيرك ، وإن سألتك ما ضمنت لى فقد اتهمتك ، وإن سكن قلبى إلى غيرك فقد أشركت بك ، جلت أوصافك عن الحدوث فكيف أكون معك ، وتنزهت عن العلل فكيف أكون قريبا منك ، وتعاليت عن الأغيار فكيف يكون قوامى بغيرك .. اللهم إنى أسألك توحيدا لا ننفى به ضدا ، ويقينا لا ندفع به شكا .

يا الله يا نور ، يا حق ، يا مبين ، افتـح قلبـى بنورك ، وعلمنـى من علـمك ، واحفظنـى بحفظك ، وأسمعنى منك ، وفهمنى عنك ، وبصرنى بك ، وسبب لى سببا من فضلك ، تغننى به من الذل ، وتصلح لى به الدنيا والآخرة ، وتوصلنى به إلى النظر إلى وجهك فى جنة الفردوس ، إنك على كل شىء قدير ، يا نعم المولى ويا نعم النصير .

اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بمحمد وحزبه على الرضا منك ، مع السلامة من الحياء والخجل والذل بما سلف منا من أعمال المخلطين . اللهم أعذرنا فى جهلنا ،

ولا تؤاخذنا بغفلتنا عنك ، ولا بسوء أدبنا معك ومع الملائكة الكرام الكاتبين . اللهم أغفر لنا ذنوبنا وغفلتنا وجهلنا بنعمك ، واغفر لنا قلة حيائنا منك ، وأقبل علينا بوجهك ، ولا تفتنا بشيء من خلقك إنك على كل شيء قدير .

اللهم إنا نتوسل بك إليك . اللهم إنى أقسم بك عليك . اللهم كما كنت دليلى عليك فكن شفيعى إليك .. اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت ، حتى تمحو ذلك بذلك . لا الذى أطاعك فيما أطاعك فيه له الشكر .. ولا الذى عصاك فيما عصاك فيه له العذر ، لأنك قلت وقولك الحق : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين ، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك ، أو تعصي إلا بحكمك وقضائك ، إلهى ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت . أطعتك بإرادتك والمنة لك على ، وعصيتك بتقديرك والحجة لك على ، فبوجوب حجتك وانقطاع حجتى إلا ما رحمتنى ، وبفقرى إليك وغناك

عنى إلا ما كفيتنى ... يا أرحم الراحمين .

اللهم إنى لم آت الذنوب جرأة منى عليك ولا استخفافا بحقك .. ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، وأحاط به علمك ، ولا حول ولا قوة إلا بك والعذر إليك وأنت أرحم الراحمين . اللهم إن سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك ، لم تملكنى من ذلك شيئا ، فإذا قضيت بشىء فكن أنت وليى ، واهدنى إلى أقوم السبل ، يا خير من سئل ، ويا أكرم من أعطى ، ويا رحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبدا لا يملك الدنيا ولا الآخرة . إنك على كل شىء قدير .

إلهى مننت على بالإيمان والمحبة والطاعة والتوحيد .. فأحاطت بى الغفلة والشهوة والمعصية ، وطرحتنى النفس فى بحر الظلم ، فهى مظلمة ، وعبدك محزون مهموم مغموم ، وقد التقمه نون الهوى ، وهو يناديك نداء نبيك وعبدك يونس بن متى ويقول : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

فاستجب لى كما استجبت له ، انبذنى بعراء المحبة ، فى محل التفريد والوحدة ، وأنبت على أشجار اللطف والحنان ، إنك أنت الله الملك المنان ، وليس لى إلا

أنت وحدك لا شريك لك ، ولست بمخلف وعدك لمن آمن بك ، إذ قلت وقولك الحق : « فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » .

يا الله يا فتاح ياعليم ياغنى ياكريم ، افتح قلبى بنورك ، وارحمنى بطاعتك ، واحجبنى عن معصيتك . وأمنن على بمعرفتك . وأغننى بقدرتك عن قدرتى ، وبعلمك عن علمى ، وبإرادتك عن إرادتى ، وبحياتك عن حياتى ، وبصفاتك عن صفتى ، وبوجودك عن وجودى ، وبدنوك عن دنوى ، وبقربك عن قربى ، وبحبك عن حبى ، وبصدقك عن صدقى ، وبحفظك عن حفظى ، وبنظرك عن نظرى ، وبتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وبحولك وقوتك عن حولى وقوتى ، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمى وعملى . إنك على كل شيء قدير .

فى الإشـــارات الإلهيــة

من كلمات أبى حيان التوحيدى :

من استأذن على الله أذن له ، من قرع باب الله دخل ، كيف تنتفع بالنصيحة ، وأنت مقيم على الخطيئة خوف الله جنة من كل كارثة . معرفة الله روضة من رياض العقل ، سبحان من أنطق الليل والنهار ، ويا لعزة من يستمع إليهما ويفهم عنهما . كم من عقل أسير عند هوى أمير ، الجدل فى الدين مطردة لليقين . الإتباع خير من الإبتداع ، الخير شجرة والعمل به ثمرته .

الشريعة مأدبة الله للعباد . التوحيد حياة النفس . المعرفة الفوز بالقدس . من تبع هواه عبد غير الله ، أكرم نفسك ما أعانتك على طاعة الله ، أهن نفسك ما عاقتك عن خدمة الله . الويل إن ضاقت رحمة الله ـ مع سعتها ـ عنه ، لك من الله نسب أصح من نسبتك إلى أبيك ، فاحفظه فإنه ينفعك .

إذا غفلت عن حكمة الله فقف عند قدرة الله ،

فإنه إن فاتك من حكمته ما يشفيك ، فلن يفوتك من قدرته ما يغنيك . سق عقلك إلى ملكوت الله ، ولا تقحمه فى جبروت الله . إذا استأثر الله بشىء فاله عنه ، وإذا تلطخت بعار فاغسله عنك بالإنابة . ربك يحسن اختياره لك ، فلا تتعرض أنت لفناء الأبد بسوء اختيارك لنفسك .

من انقطع إلى غير الله وكله الله إليه ، من صلح مع الله لم يفسد مع غيره ، من حارب الله نسفه ، ومن سالم الله سلم . أصدق الكلام كلام الله ، ما أقرب العبد من الله إن فطن لما فيه . لله عندك وديعة ، فاحفظها وتوسل إليه بها .

المعرفة مصباح القلب . التوحيد نور الله فى قلب العبد . التوكل حصن المؤمن ، الوجد حقيقة الحال . العقل رسول الحق . الصمت روضة الفكر ، اللفظ ثمرة الإرادة ، الإرادة تصور القلب . العمل شعار البدن ؛ العلم شعور الروح . العقل صعود ، والهوى هبوط .

إذا رأيت الله عز وجل يؤنسك بذكره ، ويوحشك من خلقه ، فقد أرادك . وإذا رأيته يؤنسك

بخلقه ، ويوحشك من ذكره ، فقد طردك . ومن دواعى المقت ذم الدنيا فى العلانية واغتنامها فى السر ، فارفع طرفك من أجل فكرك . أطل اعتبارك . أصدق نفسك . اعبد ربك . جرد نيتك . أجب داعيك . قدم زادك . افهم وتفهم ربك . طهر سرك . آرقب رسولك . أصلح فاسدك . واعلم وتعلم وهاجر إلى مولاك .

اللهم صل التوفيق بقولنا ، والتصديق بعلمنا ، والتحقيق بقلوبنا ، ولا تكلنا إلى حولنا وقوتنا ؛ ولا تحل بيننا وبين ما يقربنا منك ، ويدنينا من بابك ، ويجيرنا من عذابك . ويهدى إلينا رضوانك ، ويفيض علينا غفرانك . إلهنا هذه آمالنا فأعطناها ،وهذه أمانينا فبلغناها . وهذه عطاياك فهنئناها .

اللهم إنك قد دعوتنا فى الظاهر بلسان تكليفك ، وغمرتنا بضروب حججك ، واسمعتنا محكم آياتك ، وشملتنا بأنواع خيراتك ، وملكت نواصينا بقدرتك ، وأيدت المخبرين عنك المرشدين إليك ، لكنك ، يا ربنا طويت عنا إرادتك بنا ، وأخفيت حكمك لنا علينا ، فبقينا حيارى ، وهذه ربوبيتك المسلمة لك ، وسلطانك

المردود إليك ، لا معارض لك سبحانك ، ولا معقب عليك سبحانك ، لكنا يا ربنا لا نستطيع حفظ أنفسنا على طرائق أمرك ونهيك إلا ببوادى صنعك ولطفك ، فاكنفنا يا إلهنا بالعصمة ، واحففنا يا ربنا بالنعمة ، واعطف علينا يا سيدنا ومولانا بالرحمة ، حتى نحوز رضاك ، وننال الفوز الأكبر فى ذراك .

« ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المركز العربي للنشر والتوزيع
اسكندرية ـ ٤ ش سعد زغلول ـ ت : ٨٢٨٠٠٨١
القاهرة ـ ٤٣ ب ش رمسيس ت : ٣٦١١٩